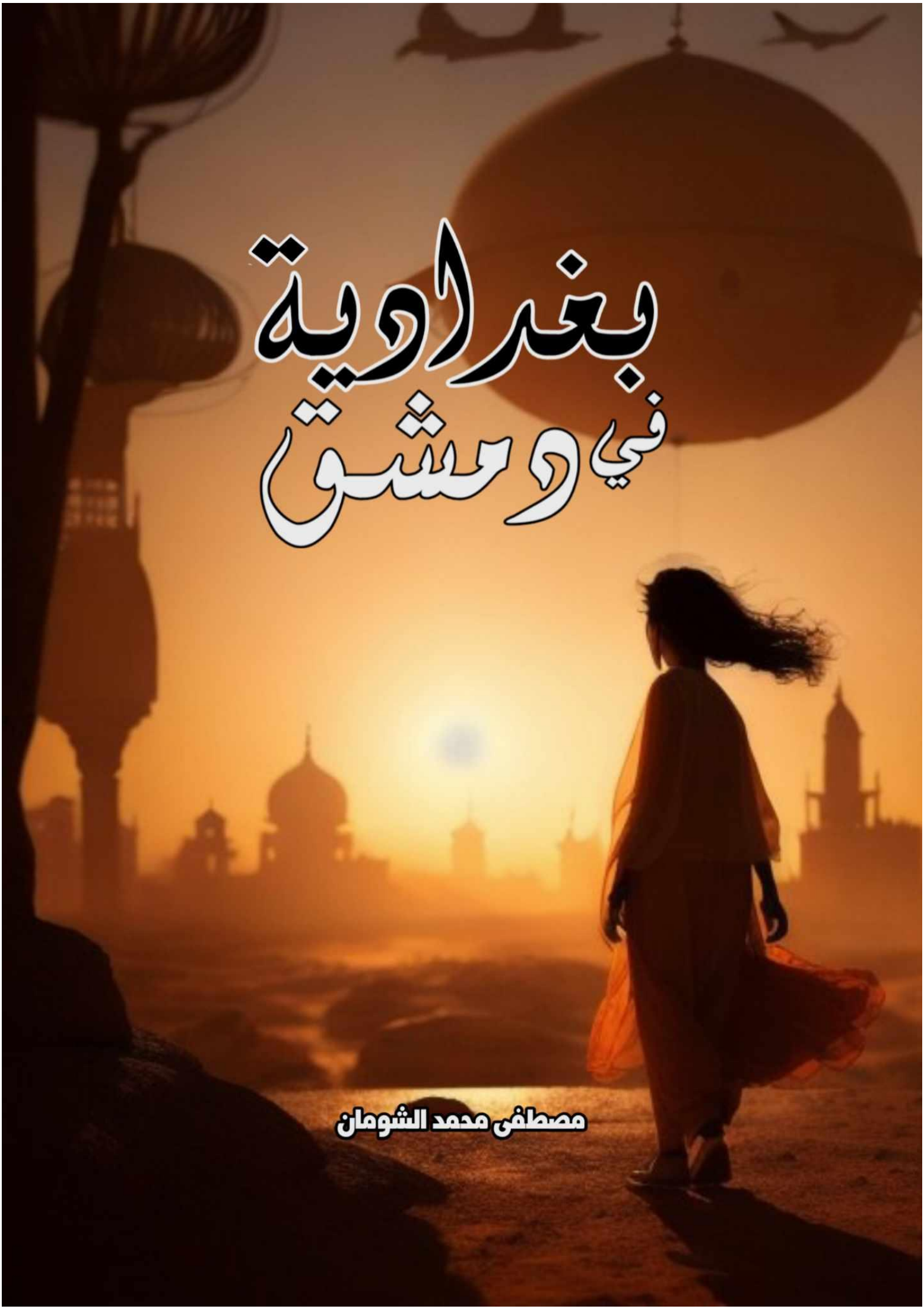
بغدادية
في دمشق
مصطفى محمد الشومان

بغداديّةٌ في دمشق

٢٠٢٢م

٢٠٢٣م

مصطفى محمد الشّوّمان

حقوق الطّبع محفوظة للنّاشر

وأيّ اقتباس أو تقليد أو نشر دون موافقة كتابيّة يُعرّض صاحبه للمساءلة القانونيّة، والآراء وحقوق الملكيّة الفكريّة خاصّة بالكاتب لا غير.

نبذة عني

مصطفى محمد الشومان، ولدت في قرية كفرسجنة في ريف إدلب الجنوبي شمال سورية.

كان عملي الأول كتاباً بعنوان: بصمات الزّمن في الذّاكرة، وهو متوفر بصيغة pdf على المكتبات الإلكترونيّة، وهذه الرواية هي عملي الثاني

الإهداء

قد تجد شخصاً ظمآناً في وسط الصحراء، ويكون معك ماء في جعبتك فتروي عطشه.

أنت تظنُّ أنك أعطيته شربة ماء لكن في الحقيقة قد أعطيته الحياة.

إلى من أعطتني الحياة: أُهديكِ روايتي وهذه الرواية أعظم ما أملك.

المقدّمة

الحرب مؤلمة تسلب منّا ابتسامتنا، وتُلبسنا ثياب الحزن، وتجعلنا لا نعلم في أيّ يوم سيكون حتفنا وكيف سيكون؟
لكن للحرب آثار إيجابيّة فهي تُظهر أصالة النّاس، ومعدنها، وتعرّفك على بلادٍ جديدة وناس جدد .
شاءت الأقدار أن يترك رعد وعائلته بغداد بعد وفاة صديقه، واشتعال شرارة الحرب الأهليّة في العراق.
كانت زوجة رعد ناضجة فكريّاً واسمها نبيلة، وهي نبيلة بالفعل، وأولادهما شاب وفتاة.
الشاب اسمه عمر يدرس ويعمل في وقت واحد، لكنّه توقف عن الدّراسة والعمل أثناء سقوط بغداد على يد الأمريكان؛ ومن ثمّ عاد وأكمل دراسته بعد السّقوط.
أما الفتاة اسمها زينب تدرس في بغداد، وهي فتاة خجولة جدّاً.
هؤلاء العائلة يتركون بغداد ويلجأون إلى دمشق بسبب الحرب الأهليّة الّتي نشبت في البلاد، ويلتقون برجلٍ اسمه

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

مراد في المسجد الأمويّ، فيأخذهم إلى منزل والده المتوفى ويسكنون هناك حقبة من الزّمن.

مراد متزوج من امرأة دمشقيّة اسمها ميسون، وقد تزوجا بعد علاقة حبّ ربطتهما لسنين طويلة، أيضا لديه أخت واحدة واسمها ملك، متزوّجة من شاب فلسطيني، وقد سافرت مع زوجها إلى استنبول بعد الزّواج بأيّام قصيرة.

رُزق مراد بعد زواجه بمولودين ذكور، الكبير اسمه محمد، والصغير أحمد.

بعد لجوء العائلة البغدادية إلى دمشق وسكنها في منزل والد مراد، يقع محمد في سنارة صيد زينب ، ويدخلان دائرة العشق، فيواجهان العديد من المشاكل ويتغلبان عليها، وتنتهي قصة حبهما بالزواج بعد أن يفقد الأمل نهائيّاً.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

رعد

بغداد

٢٠٠٣/٣/١٩م.

السّاعة العاشرة مساءً

كان الظّلام شديداً في بغداد، ورائحة البارود تملأ سماؤها، وأصوات القصف تدوي في كلّ أرجائها.

خرجتُ من المنزل لأمشي قليلاً في حيّنا، وبينما كنت أمشي استحضرت ذاكرتي أيامنا الماضية، فبدأت أتحسّر عليها، وأفكر بكارثة الحاضر، ومخاوف المستقبل الّتي باتت تقف على الأبواب .

أنظر إلى كلّ جدارٍ و شجرةٍ أُصادفها في طريقي نظرةً مليئة بالحزن والانكسار كنظرة المحبّ لمن يعشقه في لحظات الرّحيل.

عندما عدت إلى المنزل توقّفت لدقائق أمام بوّابة منزلي العريق الّذي ورثته من أبي لأنّي ابنه الوحيد، وتساءلت: هل هذه الأيّام هي الأخيرة الّتي أشمّ رائحة أبي وأمّي في جدرانه؟ ماذا عن زوجتي وأطفالي؟

إنّي أخشى من أن يصبح أحّدهم تحت التّراب قبلي، ليتني لم أتزوّج، فلو كنت بمفردي لكان الحمل أخفّ عليّ، سأدخل لأراهم، فقطار

الرّحيل بين الأرض والسّماء يعجّ بالأرواح المهاجرة قسراً في هذه الأيّام.

دخلت المنزل، ونظرت بشفقة إلى الأولاد النائمين؛ عمر وزينب. ثمّ قبّلت جبينهما، وذهبت إلى المطبخ كي أحضّر القهوة، فتحت صنبور الماء فوجدت خزان المياه فارغاً، نظرت إلى السّاعة كانت الثّانية عشر، ولولا أنّ الوقت متأخّرٌ لذهبت إلى صديقي عباس كي أطلب منه وعاءً من الماء.

ربّما النّوم الآن قد يحلّ المشكلة، لكن من الصّعب الحصول عليه فلدي مشكلة مع واهبه؛ إنّه يمنحني النّم في السّاعات الّتي لا أريد النّوم فيها، ويسلبه منّي في السّاعات الّتي أريد النّوم فيها .

دخلتُ غرفتي، وجلست على السّرير بجانب زوجتي النّائمة، وفجأةً تراقصت جدران منزلنا على لحنٍ صاخبٍ تعزفه طائرة أمريكيّة فوقنا.

دوي انفجارات تبعها صوت صراخ ملأ المكان؛ من أولادي في الغرفة الثّانية، ومن جيراني الّذين أصابتهم لعنة البقاء في بغداد.

قلت لزوجتي نبيلة: قفي جانب النّافذة واسمعي إن كان أحدٌ قد تأذّى، وتوجهت بسرعةٌ نحو غرفة الأولاد المظلمة.

سلطتُ ضوء المصباح في الغرفة، فرأيت عمر وزينب في زاويتها، والدّموع ظاهرة في عيون زينب.

قالت لي بصوتٍ مليءٍ بالتّرجي: أرجوك يا أبي أخرجنا من بغداد، لقد وصل القصف إلى حيّنا.

صمتُّ بحسرة، وحمّلت نفسي ما حصل من خوفٍ لها ولأمّها وأخيها، ما ذنبهم إن كنتُ متيّماً في حبّ هذا المنزل العريق ؟

دخلت زوجتي ووقفت على قدميها اللّتين ترجفان، وقاطعتنا بصوت ممزوجٍ بالبكاء: لقد سمعتُ زوجة عبّاس تولول وتصرخ " أين رحلت يا عباس"

خرجتُ نحوهم مسرعاً، وعندما وصلت وجدتهم ملتفّين حول جسدٍ مغطّى بالقماش؛ كما لو أنّهم حول مائدة طعامٍ طبقها مغطّى، فجثوت وسطهم، ورفعت ذلك الغطاء.

تراجعت بقوّة نحو الوراء مع زفرات متتالية، وأسندتُ ظهري على حجرةٍ سقطت من الجدار المهدّم، وكأنّني مثقلٌ من التّعب، فرحت أبكي كالنّساء، لقد وجدت عباس ممزّقاً.

وبعد لحظات استعدتُ رباطة جأشي وقلتُ لزوجته: خذي الفتيات واذهبي إلى منزلنا ستجدين أمّ عمر بانتظاركم، وانتبهوا لأنفسكم، سأذهب أنا والأولاد إلى المقبرة لدفنه قبل أن يحلّ الصّباح فتزداد الأمور سوءاً.

حملناه وذهبنا به إلى المقبرة، وما إن وصلنا وضعناه في القبر ورددنا عليه التّراب، ثمّ جلسنا على حافّة قبره، فبدأت أواسي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أولاده ببعض الكلمات، وأمسح دموعهم وأنا في أمسّ الحاجة لمن يواسيني ويمسح دموعي.

لم يكن عباس صديقاً لي فحسب، بل كان أخي أيضاً، درسنا سويّةً وعملنا معاً، وأكلنا وشربنا معاً، ولو كنت أستطيع منع الموت عنه لفعلت.

كيف رحلت يا عباس وتركتني وحدي في هذا الظلام؛ في هذه الحرب، ليتني ذهبت إلى منزلك _ منذ قليل _ وطلبت منك وعاء الماء ثمّ متنا سويّةً.

مراد

دمشق

٢٠٠٣/٤/٩م.

في ليلةٍ ذات نسائم باردة، أجلس بجانب النّافذة في أحد المقاهي المتربّعة على جبل قاسيون، حيثُ رائحة الياسمين، وروعة الإطلالة على دمشق من الأعلى.
بدأ عرض الأخبار على التّلفاز، والأضواء كلّها مسلّطة على المعركة الدائرة بين القوات الأمريكيّة وحلفائها ضدّ العراق، فخرج صحفيٌّ عراقيٌّ ببثٍ عاجل حاملاً في عينيه دموع الخذلان، ومرارة الهزيمة، وأعلن بأنّ القوات الأمريكية وحلفاءها شوهدوا وهم يتجولون بدباباتهم وأسلحتهم الثقيلة وسط العاصمة العراقية بغداد.
خيّمت غمامةٌ سوداء على المكان، وبعد بضع ثوانٍ خرج صوتٌ مليءٌ بالحسرة من بين النّاس المجتمعة في المقهى :"القدس ثمّ بغداد، ثمّ في المرحلة القادمة ستكون دمشق والقاهرة وغيرهم من البلاد العربية، هذا الأمر معروف "

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

اتبعتُ الصوت حتى وصلت إلى مصدره، فوجدته رجلاً يجلس على كرسيه حاملاً بين أصابعه سيجارة عريضة، وبدا لي أنّ عمره في الخامسة والثلاثين.

تجرّأت على محادثته لأنّه قريبٌ من سنّي وقلت له: هل هذا وقت لنوبّخ فيه أنفسنا؟!

هزّ رأسه وقال :" لم يكن قبول هذا الأمر هيناً عليّ ، لكنّي أعلم بأنّ ذلك سيحصل، لقد أخبرنا العام ١٩٤٨ م بمصير العرب قاطبة حين هُزموا أمام بريطانيا وإسرائيل؛ صحيح أنّهم دافعوا عن فلسطين، لكن لم تتحرك ربع قوّتهم .

ألم تسمع قصة الثّيران الّذين كانوا متّحدين مع بعضهم، وكان هناك ثعلب مكّار يريد أكلهم؟

حاول عدّة مرات ففشل، لأنّه أضعف من أن يهاجم ثلاثة ثيران بشكل مباشر، ولأنّ الثّعلب مكّارٌ عقد اجتماعاً مع كبير الثّيران وأقنعه بالتّخلي عن الثّور الأصغر لسواده، فوافق الثّور الكبير على طلبه، فأكله الثّعلب، ثمّ أقنعه بأنّ الثّور الأحمر غير مناسب ويجب التّخلي عنه، فوافقه الرأي وأكله، لم يبقَ سوى الثّور الثّالث الكبير الأبيض، فاستفرد به الثّعلب، فقال له الثّور الأبيض " لقد أُكلتُ يوم أُكلَ الثّور الأسود" فأكله الثعلب.

وهذا ما حصل، وما سيحصل معنا باختصار.

عدت إلى المنزل في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل، ففتحت بابه ودخلت إلى المطبخ لأعدّ شيئاً للأكل، وعندما انتهيت توجّهت نحو غرفة النّوم فوجدتُ باب غرفة الأولاد مفتوحاً.

وقفت بجانب سرير محمّد، وهو الولد الأكبر وقد بلغ من العمر ستة عشر عاماً، ثمّ وقفتُ بجانب أحمد الّذي يصغره بعام ونصف، قبل أن أخرج من غرفتهم فكرت بالآباء في بغداد، هل أطفالهم نائمون، أم أنّهم يبكون مع كلّ طرقة قدم أجنبيّ في العراق؟ أعان الله آباءهم فما أصعب أن يرى المرء الخوف يسيطر على أبنائه وهو عاجزٌ عن فعل أيّ شيء.

توجّهت نحو مخدعي ماشياً على رؤوس أصابع قدمي؛ كي لا تستيقظ زوجتي ميسون، وتستجوبني عن سبب تأخيري، وعندما فتحت باب الغرفة أُشعلَ المصباح.

تفاجأتُ بوجود ميسون واقفة أمامي، وهي تضع يديها على خصرها، وتُثني طرفها الأيمن قليلاً، وتهزّ قدمها.

قالت: ماذا كنت تفعل لمثل هذا الوقت خارج المنزل؟!

تلعثمتُ في الكلام، رغم أنّي لم أكن أفعل شيئاً يغضبها، لكن لا أريد أن أقول لها بأنّي كنتُ أشاهد الأخبار، كي أعفي نفسي من عناء الشّرح.

قلت لها: سأحكي لكِ غداً، تصبحين على خير.

عمر

بغداد

٢٠٠٣/٤/٢٥م.

بعد سقوط بغداد كست ملابس الحزن روح أبي، فذبّلت ملامح وجهه، وأطفأت شغفه، كان منعزلاً في غرفته، حتّى أنّه لم يعد يجلس معنا على مائدة الطعام.

لم أره بهذا الحزن من قبل، وأخاف أن يتسبّب له بجلطةٍ تودي بحياته، يجب أن نواسيه في مصابه، ونعيد له ابتسامته، فابتسامة الأب في المنزل كالمصباح، ما إن غابت أصبح المنزل بلا ضوء.

طلبت من زينب أن نذهب إلى غرفته، وأن تمازحه قليلاً علّه يعود كما كان.

ذهبنا إليه عندما كان منعزلاً في غرفته، لنخفّف عنه حزنه .

كان متّكئاً على جنبه، يدخّن السّيجار، وكانت "تبسته" معبّئة بأعقاب الدّخان، ودخان السّجائر يملأ الغرفة كما لو أنّ الضّباب كثيف بعد ليلةٍ ماطرة.

لم تكن هناك كهرباء كي أشعل المروحة وأغيّر جوّ الغرفة، ففتحت النّوافذ، ثمّ قبّلت يده أنا وزينب، وجلستُ على بُعدِ مترٍ منه، وجلسَتّ

زينب في حضنه كالطّفلة الصّغيرة، وقالت له: متى ستخلع ثوب الحزن، أتريدنا أن نحزن نحن؟ هذه المرّة الأولى الّتي نراك تدخّن فيها، وكنتَ تخبرنا أنّ التّدخين عادةٌ سيّئةٌ، فلماذا تدخّن؟

أجابها أبي: يا ابنتي، إنّ ما حصل ليس سهلاً، كأنّ الحرب أُقيمت في قلبي، وليس في بغداد، وما السّجائر إلى وسيلة أُخرج بها الألم من قلبي.

قالت له: لا تحزن يا أبي سيرمّم كلّ شيء، فها أنا و عمر قد عدنا للدّراسة، وأنت ستعود إلى عملك في الأيّام القادمة، لقد عادت المياه إلى مجاريها، يا أبي، أرجوك اضحك من أجلي

قال بحسرةٍ :آمل ذلك، لكن كلّ بلدٍ اجتاحته الحرب لم يعد كمان من قبلها، أنتما لا تعلمان أضرار الحروب، إنّها نارٌ تهبّ بقوّة ثمّ تخمد ويبقى الجمر مشتعلاً، فيهبّ كلّما حرّكته الرّياح.

ردّت زينب: أبي سأعود إلى غرفتي إن لم تضحك أنت لاتعلم مدى الحزن الّذي تسبّبه لنا في حزنك.

ضحك أبي لأوّل مرّةٍ بعد أيّامٍ من الحزن، وقبّل رأس زينب وأحاطها بذراعهِ.

بدأت الأفكار تدور في ذهني؛ لماذا لا أفعل مثل زينب وأجلس في حضنه؟ هنيئاً لها فأنا أخجل من الجلوس في ذلك الحضن الآمن .

عمر، يا عمر في أيّ مكان شارد الذّهن.

هذا ما قاله والدي لي، ثمّ أكمل وكأنّه يقرأ أفكاري: لا داعي للخجل، تعال واجلس بحضني، أو على الأقل التصق بي.

لم أتردّد في الذّهاب، وكأنّ شيئاً في داخلي يدفعني نحو حضنه.

فاجأتنا أمي بالدخول، فضحكت وقالت: لم يعد لي مكان في حضنك يا أبا عمر.

ردّ أبي قائلاً كلّ الأمكنة لكِ أنتِ .

غمزتُ زينب لكي نخرج إلى غرفتنا ونترك المكان لمن يطالب به، وقبل أن نخرج قلتُ لأبي: كلّ أصدقائي لديهم هواتف، متى ستشتري لي واحداً؟

أجابني: إلى أن تهدأ الأحوال قليلاً يا بني، أعدك بأنّني سأشتري لك هاتفاً.

قالت زينب: وأنا؟

قال لها: وأنت أيضاً.

فقالت أمي ضاحكةً: وأنا؟

رد أبي : أنت لا، هاتفي هو هاتفك، كل شيء لي فهو لكِ.

وعندما خرجت استحضرت قول صديقي ذو الفقار، وهو الابن الأكبر لعباس، صديق والدي الحميم" صحيحٌ أنّي أمتلك هاتفاً، وحاسوباً، ولديّ الكثير من المال ، لكن ليتني أمتلك أبي ولا أريد شيئاً من هذه الدنيا".

نبيلة

بغداد

٢٠٠٥/١٢/١م.

مرّ أكثر من عامين على بدء الحرب في العراق، يقولون بأنّ المياه عادت إلى مجاريها، نعم عادت لكنّنا نحن لم تعد لنا رغبة في الجلوس على ضفافها المليئة بالأشجار اليابسة؛ الّتي أصبحت تحت تهديد النّار؛ ثمّة شيء ناقص مقارنة بما قبل الحرب.

لم يبق لعمر سوى عام واحد على التّخرج، أمّا زينب فقد أصبحت في الصّف السّادس الإعدادي.

بغداد لم تعد بذلك الأمان الذي كانت تشهده قبل عام ٢٠٠٣ م، يجب أن نحافظ على الأولاد.

هذا ما قلته لزوجي في آخر جلسة بيننا، فسألني متعجّباً: وكيف؟!

أجبته: يجب أن نغادر بغداد في أقرب فرصة تُتاح لنا .

ردّ قائلاً: لن أغادرها إلّا في الكفن.

قلت: كيف سأقنعك بأنّ حبّ الأولاد يفوق حبّ الوطن؟!

صحيح أنّنا نحبّ بغداد، لكنّ العيش فيها أصبح لا يُطاق؛ عندما نرى الجوع يعض بأنيابه أولادنا، وأولاد جيراننا، ونرى القتل والاغتصاب، والجهل والأفعال الهمجيّة حولنا ولا نستطيع تغيير شيء تُصبح الغربة أفضل من الوطن.

الوطن حيث تجد راحتك، وراحة أولادك، الوطن أب حنون تعطيه ويُعطيك، وليس لصّا يأخذ منك ولا يعطيك

انتهى حديثي معه وهو مصرّاً على عدم مغادرة بغداد؛ كان حبّه لها يجعل النقاش في مغادرتها عقيماً.

وفي اليوم التالي كنت أنظّف المنزل، فأتى عمر بوجه متجهّم، وفتح باب غرفته ودخلها بعد أن طرق الباب بقوّة، فاتبعته لأعرف ما الّذي حصل له.

قال لي بغضب شديد: تشاجرُت مع ذلك الشيعيّ التّافه في الجامعة، وسخر منّي أمام الملأ.

ذُهِلتُ، ووضعت يدي على كتفه وقلت له: ما هذا الكلام يا عمر؟ ومن أين آتيت به!

ومن ذا الّذي تشاجرت معه، شيعيّ!

قال: صديقي القديم ذو الفقار ابن جارنا عباس.

لم يكن لدي أسلوب يهدّئ عمر، فتركتهُ في غضبه، وخرجتُ من غرفته مذهولة لما سمعته منه.

انتظرتُ زوجي حتّى أتى، وقصصتُ له ما سمعته من عمر لكي يبعد تفكير ولدنا عن هذه الأشياء ليهتم بمستقبله .

لا تستطيع الخروج من النّار سالماً؛ إن لم تمت بحروقها ستشوّهك، وتسبّب لك الأمراض، أو ستسبّب لك خوفاً مزمناً، إنّها نار الحرب، ليت رعد يوافق على طلبي بمغادرة بغداد قبل أن تصلنا.

بغداد .

٢/١٢/٢٠٠٥م.

العراق على شفا الوقوع في حفرة الحرب الأهليّة، وقد استأتُ ممّا سمعتهُ من زوجتي على لسان عمر، كانت نبيلة محقّة، يجب أن ننقذ الأولاد، لكن جذوري في بغداد، كيف سأستطيع التخلّي عنها!
هل نبقى هنا؟ لكن لو بقينا سيعيق عمر وجودي في هذه البلاد، فهو ينحاز شيئاً فشيئاً نحو التّعصب.
لم يعد يجدي التفاهم معه نفعاً، فالشّباب في تلك المرحلة يظنّون بأنّ ما يفعلونه هو الصّح، سأتريّث في الأمر قليلاً، عسى ألّا تحدث حربٌ أهليّة.
أحضرتُ عمر وذو الفقار إلى غرفتي لأعرف سبب خلافهم، وأحاول إصلاحه، فقلت لذو الفقار بعد أن حضر: يا بني إنّك تعزّ عليّ كزينب وعمر فصارحني عن سبب الخلاف بينكما.
قال: لقد استهزأ عمر بكلّ من يلطم حزناً على الحسين.

قلت لعمر: هل هذا صحيح يا بني ؟ فهز برأسه نحو الأسفل قاصداً بأنّه قد فعل، فعدتُ وسألته عن السّبب، أجاب: هو من بدأ الاستهزاء باسمي لأنّه على اسم الصحابيّ عمر.

غضبتُ جداً ممّا سمعته منهما فقلت لعمر بلهجة الموبّخ: هل هذا ما ربيتك عليه، من أنت حتى تهزأ بالنّاس وطقوسهم ؟

ثمّ التفتُ نحو ذو الفقار وسألته: هل لو كان أبوك حيّاً سيرضى بتصرّفك هذا ؟!

صفعتُ عمر، فخرج غاصباً من الغرفة، ثمّ صفعتُ ذو الفقار فتجهّم وجهه وقال لي: لا أسمح لأيّ أحد في الدّنيا أن يصفعني وخرج غاضباً.

كانت هذه المرة الأولى الّتي أصفع بها أحداً منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، ما كان عليّ أن أفعل ما فعلته.

ذهبتُ إلى قبر عباس، وجلست بجانبه، أخاطبهُ وكأنّه يسمعني ويراني، قلت له: لقد كبر الأولاد يا عباس، ولم نعد نستطيع السيطرة عليهم، هل تعلم بأنّي صفعت ذو الفقار منذ قليل؟

إنّهم يظنّون أنّ كلّ شيء لعبة؛ حتّى الحياة، ويظنّون أيضاً أنّهم الطّرف الرّابح فيها، وبينما كنتُ أحادثه رأيت ذو الفقار يأتي من بعيد نحو قبر أبيه، فاختبأتُ وراء أحد القبور كي لا يراني.

وصل ذو الفقار إلى قبر أبيه باكياً وقال: اشتقت لك يا أبي،و احتضن ترابه وأكمل قائلاً: لقد صفعني عمّي رعد منذ قليل، فغضبتُ

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وأغضبتهُ بردّة فعلي سامحني يا أبي، فقد أخبرتنا ذات يوم أن عمّي رعد مثل أبينا، ولا يجب أن نغضبه.

ظهرتُ لذو الفقار، وفاجأته بوجودي، فكفكف دموعه عندما رآني، واقترب نحوي، فعانقته وقلت له: لو كان أبوك حيّاً سيفعل ما فعلته لك اليوم، اعذرني فأنا اضطررت لصفعك، ومتأكّد بأنّه سيأتي يوم تدركُ فيه لِمَ فعلت ذلك، أما الآن دعني أصالحكَ مع عمر فأنت تعلم كم يحبّك!

قال لي: اعذرني يا عماه لن أصالحه كي لا يتكرّر ما حصل.

نظرتُ نحو السّماء وكأنّي أحدّق بشيء ما وقلت:

إنّي أرى العراق يتأهّب لشيءٍ عظيم يقلب حياتنا رأساً على عقب.

ميسون

دمشق

٢٠٠٦/٢/٢٢م.

في ليلةٍ غائمة أجلسُ على شرفة منزلي، وأراقب السّيارات القادمة من العراق وهي محمّلة بالعفش بحثاً عن مأوى.
كان هذا المشهد مبكياً، وقد استحضر حديث جدي حين تكلّم لي عن النّكبة الفلسطينيّة، وكيف ترك الناس منازلهم وأراضيهم، وتوجَهوا

نحو المجهول بحثا عن حياة، وما حصل مع الفلسطينيين آنذاك يعاد اليوم مع العراق.

هؤلاء العراقيّون كانوا آمنين في منازلهم، لكنّ الحرب أجبرتهم على ترك كلّ شيء خلفهم من أجل أن يعيشوا بسلام، واليوم باتوا مشتّتين في أصقاع الأرض بلا مأوى، وبلا طعام، فمنهم من لجأ إلى الأردن، ومنهم من أتى إلى سوريّة، ومنهم إلى اللّبنان، أيّ حزن يسكن في قلوبهم؟!

إنّهم أفنوا أعمارهم في بناء منازلهم وأنفسهم، وفجأة ينهدم كلّ شيء، كيف للحرب أن تهدم ما بناه الإنسان في نفسه وأرضه _ على مرّ أعوام كثيرة _ بأيّام قصيرة، إنّها لا تعرف الرّحمة؛ خالية من مشاعر الإنسانيّة، تجوّع الطّفل أمام أبيه، وتغتصب المرأة أمام زوجها، وتقتل الأب أمام عائلته.

خرج زوجي من الغرفة وجلس بجانبي متحسّراً على ما حصل في العراق، وقال لي: يوم سقوط بغداد كنت في المقهى، فقال لنا أحد الرجال: القدس ثمّ بغداد ثمّ دمشق ثمّ البلدان العربيّة كلّها

هل يعقل بأنّنا سنغادر دمشق يا ميسون؟

أجبته قائلةً: اعقل يا مراد، فما هذا الكلام إلّا بخار داخل وعاء ماء معدنيّ موضوع على النّار، جرب أن تبعده عن النّار لبضع دقائق فإنّك لن تلاحظ أيّ وجود للبخار، وهذا ما يحصل معنا، يريد البعض إخافتنا لأنّ العراق قد وُضع على النّار، أهدأ يا عزيزي لن يحصل

شيءٌ بإذن الله، وإن شاءت الأقدار وحصلت حرب يجب ألّا تعيش الألم والخوف مرّتين، ثمّ نهضتُ وقلت له : أنا ذاهبة إلى المطبخ كي أحضر القهوة، يبدو أن أعصابك متعبة.

قال : إفعلي ما شئتِ، ثمّ نظر إليّ وأردف قائلاً: لا أريد القهوة، سأذهب للتجوّل، اذهبي ونظّفي منزل والدي، أخشى أن يصبح عدد النازحين كثيراً، علّنا نستطيع إيواء عائلة فيه.

ذهبتُ لأنظّف منزل عمّي المتوفى؛ والد مراد، وحين دخلته اجتاحني الحزن، كان المنزل مهجوراً، لا يدخل إليه إلّا زوجي بين كلّ حين وآخر، أمّا أنا فلم أدخله منذ أن خرجت منه.

عندما دخلت إليه ابتز هوائه الحزن في مهجتي، وعادت ذاكرتي بي إلى الوراء؛ يوم أن دخلته بفستان أبيض، ورحت أتذكّر عمي وزوجته، ونسيبتي الّتي سافرت مع زوجها إلى استنبول، فجلست باكيةً في فسحة المنزل.

ما أسرع الأيّام، فقد دخلت هذا المنزل عندما كان عمري ثمانية عشر، وكأنّه منذ عام فقط، لكن الحقيقة أنّي تجاوزت الأربعين.

رعد

بغداد

٢٠٠٦/٢/٣٢م.

حصل ما كنت أخشاه.

بالكاد أستطيع منع عمر من الذّهاب إلى خارج المنزل، كي لا ينتمي لأيّ حزبٍ من الأحزاب المتحاربة، إنّه يندفع نحو الحرب كما تُدفع الكرة إلى المرمى، وقد منعته لأنّ الكرة لا تُدفع من تلقاء نفسها، من المؤكّد أنّ هناك من يعبث بأفكاره، وهو في هذا العمر كالشّمعة يقبل أيّ نقشٍ دون نقاش.

جلسنا حول مائدة الطّعام لنتناول الفطور، وبعد أن انتهينا طلبت نبيلة من الأولاد أن يدعونا قليلاً لنتكلّم في موضوعٍ سريّ بيننا .

قالت لي: في المرّة الماضية لم أناقشك حول موضوع الرّحيل من بغداد، لكنّ الآن أصبحت الأوضاع مخيفة، ورائحة الدّماء تفوح في كلّ مكان، آن لنا أن نغادر بغداد.

قلت لها: لنتريّث قليلاً عسى أن يخرج رجالٌ رشيدون يصلحون هذا الفساد.

ردت نبيلة متعجّبةً: تكلّمني وكأنّك لست من العراق.

هؤلاء الرّشيدون الّذين تتكلّم عنهم أطفأ المتناحرون شمعتهم، وشوّهوا سمعتهم، وأصبحوا متخلّفين ورجعيين في نظرهم، ولا أحد يهتم لهم، أرجوك دعنا نخرج من بغداد وإن عادت الأمور إلى ما كانت عليها نعود.

قلت: نحن لن نشارك بهذه الحرب يانبيلة، ولن نؤذي أحداً.

قالت: لو كانت المشكلة تُحلّ بالحياد لوافقتك الرأي، لكنّ الحرب نارٌ مشتعلة لا تفرّق بين صغير وكبير، وشاب وفتاة، ومحايد ومشترك؛ إنّها تحرق كلّ ما تجده أمامها، هل كان صديقك عباس مشتركا بالحرب؟ لا إنّه إنسانٌ مسالم، لكنّ نارها أحرقته، فكر يا رعد، فإنّ ضحايا الحرب معظمهم أبرياء، فكر قبل أن تمتد النّار إلينا.

جلستُ أفكر بكلام نبيلة حرفاً حرفاً، لن أحمّل نفسي خوفهم مجدداً، كما حمّلتها خوفهم أثناء قصف بغداد يوم السقوط، فندهتُ لزينب وعمر، وقلت لهم: ما رأيكما بأن نغادر بغداد؟

أجاب عمر: لسنا موافقين، بغداد ليست للشيعة، بل هي للسنّة.

نظرت إليّ نبيلة بطرف عينها وكأنّها تقول لي: إن لم نغادر بغداد سنخسر الأولاد.

قلت لزينب: وأنتِ ما رأيك؟

ردّ عمر قائلاً: وهل زينب ستحدّد مصيرنا؟ إن أردتم الخروج فافعلوا، لكنّي لن أذهب معكم وانصرف إلى غرفته.

لم أردّ على كلامه، فأنا أعلم بأنّه سيغادر معنا إن أجبرته.

أصبحت السّاعة السّابعة مساءً، وأنا ما زلت أفكر هل نغادر أم لا؟! كيف سأترك هذا المنزل العريق، ولمن سأتركه، وهل هناكَ أبٌّ كالعراق يحتوينا حتّى نسافر إليه؟! وُضِعْتُ بين خيارين، الأوّل خسارة عمر، والثّاني مغادرة بغداد.

اخترتُ الثاني، وليس لصالحي أن أتمهّل أكثر .

جلستُ بجانب نبيلة وقلت لها: لقد اتخذتُ قرار الرحيل، لكن أين سنذهب؟! فأجابت: بلاد الله واسعة، دعنا نذهب إلى سوريّة، أصبح هناك الكثير من العراقيّين.

ندهت للأولاد وقلت لهم : حزّموا الأمتعة، سنغادر بغداد في الصّباح.

ذو الفقار

بغداد

٢٠٠٦/٢/٢٤م.

لقد أخبرني حيدر منذ قليل بأنّه رأى عمّي رعد وهو يحزّم أمتعته ليلجأ إلى دمشق مع عائلته.

"اعتنوا بأمّكم جيداً، واحذروا أن تنصاعوا لكلام أحد وتصحبوا طرفاً في الحرب، أبلغ سلامي لوالدتك ولإخوتك وعلى رأسهم ذو الفقار، وأما عن منزلي فهو بأمانتكم، أنا مسافرٌ إلى دمشق".

كانت هذه وصيّة عمّي رعد لنا، وما أنبله من رجلٍ.

كيف رحلوا بهذه السرعة، لقد عشنا وسهرنا وأكلنا معاً، يا لخسارتنا في رحيلهم.

آه، ليتني تصالحت مع عمر قبل رحيلهم .

سألت حيدر : هل قالوا لكَ شيئاً عن العودة؟

قال لي : عندما سألت عمي رعد السؤال ذاته، أجابني متحسراً: سنعود بعد أيام قليلة.

هل تعلم يا حيدر ما كان يقوله لي أبوك؟

كان يقول لي: لن أزوّجك إلّا زينب، وأخاف أن تطول الحرب ولا يعودون، فيصبحوا ذكرى، ويبقى قول أبي غير محقّق.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نبيلة

دمشق

٢٠٠٦/٢/٢٥م.

بعد سفرٍ دام نهاراً كاملاً وصلنا دمشق السّابعة صباحاً حاملين إليها أحزاننا، كانت شوارعها تكتظّ باليتامى العراقيين، ومعظمهم يجلسون في الحدائق أو على أطراف المدينة ينتظرون أحداً يؤويهم.

ها نحن الآن بدأنا بدفع ثمن غلطة لا علاقة لنا بها، وهؤلاء اللاجئين الّذين ينتشرون على الطّرقات معظمهم مثلنا.

قلت لزوجي: أين سنذهب، لقد أغرقتنا السّماء بمائها؟

نظر طويلا في الأرض وقال: لن نذهب لأيّ مكان، مصيرنا مصير أولئك الّذين ينتظرون أحداً يؤويهم؛ وأشار بيده نحو العوائل الّتي كانت جالسة على قارعة الطّريق.

قلت له: دعنا نذهب إلى مسجد أو كنيسة، أو أيّ مكان يؤوينا إلى أن نجد منزلاً.

قال: وما أدراني إن كانوا يسمحون لنا بالجلوس في المساجد والكنائس أم لا.

مرّ فتى يافع من أمامنا فسأله زوجي عن المسجد الأمويّ، وبعد أن أرشده إليه توجهنا نحوه، وما إن وصلنا رقدنا فيه من عناء السّفر.

شاهدَنا بعض الناس ونحن ندخل المسجد الأمويّ، فأحضروا لنا بعض المؤونة والطّعام.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قال عمر: قلت لكم دعونا نبقى في بغداد، أصبحت الناس تتحنّ علينا، هل يعجبكم وضعنا الآن؟!

نظرت إليه وقلت له: لا تزد علينا من الألم ما نحن فيه، ثمّ أجهشتُ بالبكاء وأردفت قائلةً: يكفي يا ولد.

أصبحت الساعة الثامنة مساءً.

قال رعد اخلدوا إلى النّوم، وأنا سأنام أيضاً كي أستيقظ في الصِباح وأخرج لأبحث عن منزل.

نامو جميعهم إلا أنا بقيت أربط الدّعاء على قلبي الّذي انكسر، أيّ لعنة حلّت بنا!

آهٍ يا بغداد هذه المرّة الأولى الّتي سننام فيها قسراً خارج أسوارِكِ.

مراد

دمشق

٢٠٠٦/٢/٢٦م.

استيقظت باكراً، وبدأت أفكر، إلى متى سأبقى دون عمل؟

رحم الله والدي الّذي ترك لي محلّين وأجّرتهما، إلّا لولاهما لمتنا جوعاً.

قالت لي ميسون: هل أعدّ الفطور ؟

أجبتها قائلاً: لا سأذهب اليوم إلى المسجد الأمويّ لأساعد بعض الشّبان بتنظيفه.

أعجبت نبيلة وتعجّبت ممّا قلته وقالت: هداك الله ووفّقك، لكن منذ متى تهتم لهذه الأمور؟!

أجبتها: لا أعلم يا ميسون، أشعر أنّ المسجد الأمويّ أصبح كتلة مغناطيسيّة ضخمة، وأشعر أنّي برادة من الحديد.

ذهبت إلى الشّباب الّذين اقترحوا تنظيف المسجد، ثمّ انطلقنا سويّةً نحوه، وعندما وصلنا دخلناه حاملين معدّات التّنظيف، فوجدنا ثلاثة

أشخاص نائمين بداخله، وعفشهم بجانبهم امرأة، وشاب، وفتاة شابة، وفراش ممدودة تُظهر بأنّ شخصاً آخر معهم.

تمزّقت أوتار قلبي عند رؤيتهم، فأردت أن أوقظ الشاب.

ندهت له يا شاب، يا شاب.

استيقظوا الثلاثة، وبدأوا يلملمون أنفسهم، فقال الشاب تفضل يا عم.

سألته من أنتم، وماذا تفعلون هنا؟

تلعثم في الكلام فاستبقته المرأة الكبيرة بالرّد وقالت:

أجبرتنا الحرب على مغادرة وطننا، وأتينا البارحة إلى دمشق، كانت السّماء ماطرة فأردنا أن نبيت هنا إلى أن نجد منزلاً نسكن فيه؛ نحن من العاصمة العراقيّة بغداد وأنا اسمي نبيلة، ثمّ أشارت إلى الشّاب والفتاة وقالت: وهؤلاء هم أولادي .

سألتها أين زوجك إذاً؟

أجابت: لقد قال لنا ليلة البارحة بأنّه سيذهب في الصّباح ليبحث عن منزل، وأعتقد بأنّه قد ذهب .

ابتسمتُ ابتسامةً خفيفة وقلت لهم: بحياتي لم أشارك بتنظيف مسجدٍ، لكن شعرت هذا اليوم بأنّ شيئاً يجبرني على القدوم إلى هنا، منذ بضعة أيّام طلبتُ من زوجتي أن تنظّف منزل أبي المتوفى علّني أُسكن به عائلة، وها هو المنزل ينادیكم فجهزوا أنفسكم لتذهبوا معي، حللتم أهلا ووطئتم سهلاً.

نظر كلّ منهم إلى الآخر بفرح وسعادة، ثمّ بدأوا بتجهيز أمتعتهم، واحتاروا في تقديم كلمات الشكر لي.

حضر كبيرهم بعد قليل، فصافحته بعد أن واسيته في مصاب الفراق، ثمّ انطلقنا نحو منزل والدي.

دخلنا إلى المنزل كانت باحته صغيرة، و مرصوفة بالرخام، في وسطها بحرة، مزيّنة بالفسيفساء نسميها نافورة، وأمامها ليوان صغير مغلق من ثلاث جهات، ومفتوح نحو باحة المنزل،

قلت لهم: معظم المنازل الدمشقيّة القديمة تحولت إلى مقاهي ومطاعم في عصرنا هذا، ألا أنّ هذا الحي بالتّحديد لم يتحوّل رغم العروض المغرية الّتي قدمت لأهله، كان المنزل مليئا بالمجالس والسّجادات القديمة، ألا أنّني بعتها عندما شيّدت منزلي، ثمّ نظرت إلى رعد وقلت له: ياسيد رعد: لن تشعروا بالغربة أبداً، فهنا دمشق.

راحت زوجته تتفسّح في أرجائها، وعندما انتهت شهقت وقالت يا الله ما أجمله، أما الشّاب والفتاة فكانا واقفين بجانب أبيهم ، ينظران إلى البحرة ويتهامسان، فقاطعهم رعد قائلاً، دعونا ندخل العفش إلى المنزل.

محمد ابن مراد

دمشق

٢٠٠٦/٣/١م.

عدتُ باكراً من الجامعة هذا اليوم، وأشعرُ بالضّجر.

احترتُ بين الذّهاب للتّسوق، أو الذّهاب إلى زميلي في الجامعة بناءً على دعواته المتكرّرة.

بعد تفكيرٍ طويل قرّرت الذّهاب إلى منزل خالد؛ زميلي في الجامعة.

عندما وصلت استضافني أحسن الضّيافات في منزلهم الفاخر، لكنّي تفاجأتُ بإحضاره للأركيلة وهي مشروبٌ ضارٌ جداً. وتفاجأت أكثر عندما طلب منّي أن أشرب معه.

اعتذرتُ منه وقلت له: بيني وبين الدّخان وأتباعه مسافة ما بين السّماء والأرض، ولو يعلم والدي بأنّني أجلس مع شخصٍ يأركل لغضب منّي.

ضحك وقال لي بسخرية : "الحياة خرابٌ من دون شراب يا مدلّل أبيك، اطمئن لن يخبره أحد إن شاركتني، فلا يوجد سوانا في الغرفة".

فكرتُ بأفعال والديّ، لماذا يريدان منّي أن أبقى طفلاً صغيراً لا يُقدم على عملٍ إلّا بعد استئذانهم؟!

كلّ الشّباب يدخّنون ويسهرون ويأركلون إلّا أنا ما زلت طفلاً في نظرهم .

سألتُ خالد : منذ متى وأنت تأركل؟

فأجابني: منذ أربعة سنوات ونصف، لماذا تسأل؟

قلت: لقد قِيْلَ لي بأنّها تسبّب أمراضاً كثيرةً، ومنها السّرطان .

عاد للضّحك وقال لي: هذا ما يقولونه الآباء، هل تشكّ في صحة جسدي؟!

راودني الفضول لتجربتها فطلبتُ منه ذلك.

جلستُ جلسةً كما لو أنّي كبير قومٍ في مضافته، ووضعتُ خرطوم الأركيلة في فمي، بعد أوّل سحبة بدأتُ بالسّعال، فقلت له: يا إلهي كأنّها سكاكين تُقطّع ما بجوف الصّدر، كيف تحتملها؟

أجابني، هذا أمر طبيعي ستعتاد عليها، جرّب مرّة أخرى. سحبت الثّانية والثّالثة فشعرتُ بالدّوار، واستلقيْتُ على ظهري.

وطلبتُ من خالد أن يوصلني إلى منزلي، وقبل أن يوصلني أعطاني علكة لأغيّر طعم فمي وعطّرني خشية من أن يشتمّ والدي رائحة

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

المعسّل، وعندما وصلت المنزل غطّيتُ في نومٍ عميقٍ حتّى صباح اليوم التّالي.

وفي اليوم التالي ارتعش أمام عينيّ ضوء الشّمس المتسلّل من النّافذة عندما أيقظتني أمي في الضّحى.

صدمتني قائلةً :حتّى السّكارى لا ينامون نومتك هذه.

ميسون

دمشق

٢٠٠٦/٣/٢٠م.

منذ عدّة أيّام وأنا ألاحظ بأنّ محمد يخرج كلّ يوم بعد انتهائه من الجامعة.

" لست طفلاً، دعوني أعيش حياتي "، هذا ما قاله لي بغضبٍ شديدٍ عندما سألته إلى أين ذاهب؟ سرعان ما تبخرت كلماتي المعدّة للقول أمام حرّ غضبه، يجب أن أحكي لمراد، فما أدراني إن كان محمد يقمر ويسكر مع رفاق السّوء!

لا أذكر بأنّ صوته ارتفع فوق صوتي البتّة إلّا في هذه الأيام، ومن المؤكد وجود دافع لذلك، يجب أن نتدارك الأمر.

كان زوجي جالساً على كرسيه أمام باب منزلنا، فأعددت كوبين اثنين من القهوة وأخذت معي كرسياً وجلست إلى جانبه.

سألته : هل رأيت محمد عندما خرج؟

أجاب : نعم، قال لي أنّه ذاهب إلى صديقه خالد.

لقد سألته السؤال ذاته فأجابني بنبرة غاضبة " لست ولداً الخ... "

أنا خائفة من أن يقع في فخّ المقامرة أو التدخين أو.... الخ.

لا تقلقي يا عزيزتي فهؤلاء الشّبان في سن المراهقة، ولا يريدون التّدخّل بأمورهم من قِبَل أيّ أحد، فاطمئني نحن قد ربينا أولادنا على الخير، وبذرة القمح لا تنبتُ شوكاً.

سحبتُ نفساً عميقاً وقلت: متى يدرك الأبناء بأنّهم أطفالٌ في نظرنا ما دمنا على قيد الحياة؟! ثم أردفتُ قائلةً: لِمَ لا تعرفنا على العراقيين الّذين سكنوا في منزل والدك.

أجابني: كنت أنتظر رأس الشهر لأقبض أجرة المحلات، وأدعوهم على الغداء، لكن بما أنّك مصرّة سنذهب إليهم بعد قليل، ونجلس معهم، وندعوهم للغداء غداً، ما رأيك؟

أجبته: موافقة بكلّ تأكيد، سأذهب لأعدّ نفسي، وأعود لك.

ذهبنا إليهم ففتحت لنا الباب امرأة.

عرّفني زوجي عليها، وعرّفها عليّ.

سأل مراد نبيلة عن زوجها رعد، فأجابته: إنّه غارقٌ في بحر عزلته، حمداً لله أنّكم أتيتم، ربما سيشعر بالفرح إن رآكم".

خرج رعد والأولاد لاستقبالنا، فجلسنا في فسحة المنزل حول النّافورة، وبدأنا نتبادل الحديث.

قلت لهم: لمْ تعرفوني على الشباب.

أشارت نبيلة إلى الشّاب وقالت : هذا عمر، ابننا الوحيد من الذكور، وقد تخرّج من الجامعة منذ عام، ثم أشارت إلى الفتاة وقالت : وهذه زينب ابنتنا الوحيدة من الإناث.

ابتسمت زينب خجلاً ونظرت نحو الأسفل لتخفي ابتسامتها، ثمّ انصرفت نحو المطبخ.

قال لهم زوجي: منذ أن أخبرت زوجتي بأنّكم مكثتم هنا وهي تطالبني بأن أعرّفها عليكم، فردّ رعد ضاحكاً: إنّه فضول النساء يا سيد مراد.

جلسنا لمدّة ساعة، وشربنا القهوة الّتي أعدّتها زينب الخجولة، ثمّ استأذنّاهم بالمغادرة بعد أن دعوناهم إلى الغداء في يوم غد.

زينب

دمشق

٢٠٠٦/٣/٢١م.

المطبخ من أكثر الأماكن الّتي تحثّني على التّفكير، وإظهار مواهبي في الغناء بين جدرانه الأربعة، فاللّحن في هذا المكان يصدر من اصطدام الماء بالصّحون المعدّة للجلي، والجمهور أوانٍ معدنيّة موضوعة على الرفوف.

أفكر الآن بدراستي، أظنُّ بأنّي لن أعود لها مجدداً، فأنياب الفقر تحيط بنا، وأبي وأخي لا يعلمان كيف سيتوظّفان في دمشق.

قالت أمّي لأبي منذ قليل: لماذا لا تخبر مراد، لعلّ لديه فكرة يساعدك بها؟

فأجابها: لا أستطيع يا نبيلة، ربّما يظنّ بأنّي طامعٌ في كرمه.

مرَّت في خاطري فكرةً، سأقول لأمّي أن تكلّم خالتي ميسون، وخالتي ميسون تشرح وضع أبي وأخي لزوجها، فهو من هذا البلد ولديه معارفٌ فيه، وخبرةٌ أكثر في دوائره.

عرضت على أمّي الفكرة، فوافقتني وقالت: لكن ماذا لو علم أبوكِ؟

أجبتها: اطلبي من خالتي ميسون أن تطلب من زوجها بأن يفتح الحديث مع والدي ويتظاهر بأنّه لا يعلم شيئاً.

***

بقيت ساعتان على موعد ذهابنا إلى الغداء الّذي دُعينا عليه.

طلبتُ من أبي وأمي أن أبقى في المنزل، فقالت أمّي: لا، منذ قليل أخبرني عمر بأنّه لن يذهب معنا، هل سنذهب أنا وأبوكِ وحدنا!

كما أنّنا نحتاجك لمساعدة ميسون في تنظيف الصحون بعد الانتهاء من الطّعام .

انصرفتُ إلى غرفتي، ووقفت أمام المرآة أتغزّل بنفسي قائلة : لمن ستكون تلك العيون العسليّة، والشّعر المتدلي إلى أسفل ظهري، وبشرتي السّمراء؟ ثمّ توقّفت وقلت: ماذا لو تزوّجت شخصاً بشرته سمراء، فضحكتُ وأكملت: سيأتي النّسل مغمّساً بالشوكولا.

فجأة سمعت أمّي تقول لي: زينب هل جننتِ، ظننتُ أنّك عاقلة، لكنّك تفكرين بالزواج.

بعد أن سمعتُ ما قالته أمّي ذُبتُ خجلاً وأصبحت كالثلج المعرّض للنار.

ذهبنا إلى منزل السّيد مراد، وفي طريق الذّهاب كنت أفكّر كيف سأجلس، وآكل، وماذا أتكلم؟!

شعرتُ أنّني في مأزق، فلا أذكر أنّي حضرت عزيمة في منزلٍ غير منزل عمّي المتوفَى عباس.

وصلنا المنزل، جلستُ بجانب أمّي استمع إلى الحديث الدّائر حول الحكومات والسّياسة والهجرة، وبينما نحن نتكلّم وقف عمي مراد ونظر من النافذة إلى خارج المنزل.

سأله أبي: هل هناك شيء؟

أجابه: لا، لكن كما تعلم هذه المواضيع مخيفة، فللجدران آذان.

حاولت إخفاء ابتسامتي لكن دون جدوى، لاحظها عمّي مراد فابتسم وقال: هل تضحكين على عمّكِ أم على الجدران؟

أجبته: لقد عدْتَ بذاكرتي إلى أيّام بغداد، كنت أسمع أبي يقول تلك الجملة كثيراً لأخي عمر ولا أعرف القصد منها!

قرصتني أمي من فخدي، وهذه الإشارة كلامٌ يقول لي اصمتِ.

نظر عمي مراد إلى أبي وأمي وقال لهم : أين عمر، لماذا لم يأتِ معكم؟

برّر أبي سبب غيابه، وبينما هو يتكلم طُرقَ الباب، ثمّ دخل شاب وسيم، فقال له عمي مراد ادخل يا بني وسلّم على الحاضرين وصافح عمك رعد.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

دخلت خالتي ميسون وقالت للشّاب : محمد تعال ساعدني في إحضار الطعام.

قال له أبي: أجلس يا محمد، ثم أردف قائلاً : زينب اذهبي مع خالتك لإحضار الطّعام .

ذهبت معها إلى المطبخ، كان الطّعام سمكاً مقليّاً مع سلطة خضار، وعندما بدأنا بالأكل شعرت بخجل شديد؛ أصبحت آكل لقمة صغيرة من الخبز واتبعها بملعقة من السّلطة.

لاحظتني خالتي ميسون فنهضت من جانب زوجها وجلست بجانبي تعزل لي الحسك عن لحم السّمك وتضعه أمامي.

كانت نظرات أمي تقول لي: فضَحتِنا، كأنّك لم تأكلي سمكٌ في حياتك.

انتهينا من الطّعام وذهبتُ مع خالتي ميسون لأساعدها في تنظيف الصّحون، وبينما أنا في المطبخ أصغي وأجيب إلى الأسئلة الموجّهة لي عن عمري ودراستي و..... الخ، سأل محمد من جانب باب المطبخ: أمّي هل جهّزتِ الشّاي؟

قالت لي خالتي ميسون: من فضلكِ أعطهِ الشاي مع الكاسات فيداي متّسختان.

وُضِعتُ في موقف محرج، فحملت الصينيّة مع الشّاي، وخرجت لأعطهما لمحمد، وبينما أسلّمه إياها تلامست يداه بيديّ فازدادت رجفتي وأفلتتُ الصينيّة، ولولا سرعته في إمساكها لسقطت على الأرض.

محمد

دمشق

٢٠٠٦/٤/١٩م.

طلب منّي والدي أن أذهب مع عمر ليستكمل أوراقه في وزارة التّعليم العالي من أجل أن يبدأ بالتّدريس، وذلك لأنّ أبي يعرف أحّد الموظّفين، واتّصل به ليسهّل أمره .

مسكين من لا يملكُ صديقاً في دوائر الدّولة بعد أن عمّ الفساد، وتفشّت الرّشوة فيها، وانتشرت كما تنتشر النار في الهشيم.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وصلنا الوزارة، كانت قلوب الموظّفين قاسية كالصّخر، فهم لا يشفقون على المراجعين البسطاء، ولا يحسّون بمعاناتهم حتّى وإن رأوهم منهكين من التعب .

عندما عدنا طلب عمر منّي الذّهاب إلى منزله من أجل أن نشرب القهوة فوافقت على طلبه.

دخلنا المنزل، فوجدنا أباه جالساً حول النّافورة وبيده كتابٌ.

سألني عمر: هل نجلس مع أبي، أم ندخل إلى الغرفة؟

فضّلت الجلوس حول النّافورة مع أبيه.

بعد جلوسنا بقليل ذهب عمر لإحضار القهوة، وبينما كنّا نشربها، ونتبادل الحديث عمّا حصل معنا في الوزارة أدرت رأسي لليمين قليلاً فوجدت زينب تسترق النظرات من نافذة الغرفة المفتوحة.

لم أبدِ أيّ اهتمامٍ، شربت كوب القهوة ثم استأذنت بالخروج.

وصلت المنزل، واستلقيت على سريري ثمّ بدأتُ أفكر، هل كانت تنظر لي أم لا، وإن كنتُ أنا المقصود بنظراتها، فهل هو إعجاب !

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

منذ فترة كانت ترتجف لأنّها أعطتني الشّاي فقط، فضحكتُ وقلت : يا لها من مجنونة ثمّ أردفتُ وقلت مبتسماً : مجنونة وجميلة.

فتحتُ أحّد الكتب الدراسية لأقرأ فلم أستطع، شعرت كأنّي أفتح باباً للهموم إلى قلبي فأغلقته، وقرّرتُ الذّهاب إلى خالد لأشرب الأركيلة.

اتّصلت بخالد أستأذنه في الذهاب إليه فقال لي : أنا ذاهب لأشتري هاتفاً جديداً وعندما أعود سأتصل بك.

ذو الفقار

بغداد

٢٠٠٧/١/٣م.

خمدت نيران الحرب قليلاً، لكن مازال جمرها حاراً ومعرّضاً للإشتعال إن عبثت به الرّياح .

منذ عدة أيّام تمّت خطبتي على ابنة خالتي، ويوم غد هو يوم زفافنا، ليت أبي كان حيّا ليحتفل معنا، وليت عمي رعد هنا أيضاً، فهو الإنسان الوحيد الذي كان يمنحني مشاعرَ تشبه مشاعر والدي نحوي.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كيف اللّقاء وقد قُطعت بيننا السّبل، ليت ما عشناه بعد سقوط بغداد كان حلماً، ليتني أستطيع أن أخبر عمي رعد بزواجي كي يشعر بأنّ مكانته ما زالت محفوظة في قلبي.

لقد قال لي بعض الأصدقاء بأنّه يمكنني البحث بسهولة عن أيّ شخص أريده، في تطبيق يدعى الفيس بوك، ويشترط أن يكون الشخص الّذي أبحث عنه يستعمل التّطبيق نفسه .

للأسف هاتفي لم يدعم تنزيل التطبيق، فقرّرت أن أشتري هاتفاً حديثاً بعد زواجي لأبحث عن عمي رعد، أو عن أيّ أحد من عائلته .

عندما تمّت خطبتي وعدنا إلى المنزل لم تستطع أمّي أن تتوقّف عن البكاء، وإخوتي كذلك أيضاً، غياب والدي عنّا لا يُنسى، وخلّف في قلب كلّ واحدٍ منّا فراغاً لا يسدّه أحد من الحاضرين.

إنّ الأفراح تُقام بعد غياب الأحبَّة لكنّها لا تكتمل فتصبح عزاءاتٍ بطقوس مختلفة.

ذهبت مع والدتي وخطيبتي وأمّها إلى السّوق، لنشتري ملابس للزفاف تحضيراً ليوم غد، فمشينا في شوارع بغداد،

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كانت كلّ فسحة أراها لي فيها ذكرى مع أناس لم يعودوا موجودين فيها .

سألتني والدة خطيبتي: ما لك حزين ؟

ابتسمتُ وقلتُ لها: لا لست حزيناً.

ثمّ بدأتُ بالتّفكير، لا يجب أن أُظهر حزني أمام خطيبتي، يجب أن أساعدها لتشقّ طريقها نحو السّعادة، لا أن أحمّلها ذكرياتي وحزني .

عندما عدنا من السّوق ذهبت أمّي وشقيقاتي لإعادة ترتيب منزل عمّي رعد، حيث سيزفّونني هناك نظراً لضيق منزلنا.

فاتّبعتهم وقلت لأمّي: إن تمّ زفافي ورزقنا الله بأولاد ذكور سأسمّي الأوّل عباس، والثّاني رعد، وهذا عهد علي.

نبيلة

دمشق

٢٠٠٧/٣/٥م.

منذ أيّام اشترى زوجي هاتفاً حديثاً، ونزّل عليه تطبيقاً يدعى الفيس بوك، وأنشأ حساباً باسمه، ووضع صورته عليه، ثمّ علّمني استخدامه.

أصبحتُ أشاركه استخدامه ، وأطلب منه أن يدعه لي عندما يذهب إلى وظيفته، وبينما كنتُ أستخدمه صباح هذا اليوم وصلني طلب صداقة باسم ذو الفقار.

لم يخطر على ذهني أنّ هذا الحساب لابن جارنا عباس، لكن بعد أن تصفّحته ووجدت ضمنه صورة لحيّنا علمت .

نظرتُ إلى صورة الحي فاشتعلت نيران الحنين في مهجتي، وسالت دموعي.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

جلست زينب بجانبي لترى سبب بكائي ، وعندما رأت بكت.

كنت أعلم أنّها ستبكي فالحنين عادلٌ بتوزيع قسوته على القلوب المفارقة .

أرسلتُ لذو الفقار لاطمأن عن حاله، وحال أهله، وأسأله ماذا حل بالديار من بعدنا، ثمّ نفدت بطاريّة الهاتف من الشّحن .

ذهبتْ زينب إلى غرفتها، وأحضرت دفتراً وقلماً، ثمّ جلستْ حول النّافورة وبدأت تكتب؛ وأنا أراقبها من نافذة غرفتي .

انتظرتُ قليلاً ثمّ ندهت لها لأرى ما كتبته، فوجدت نصّاً مليئاً بالحنين إلى بغداد، وقد لامس مقتبس شغاف قلبي ، كان مضمونه " وما صورة حيّنا إلّا وقود وُضعت على جمر الحنين" .

لفت انتباهي أيضاً وجود حرف الميم باللغة الانجليزية في الصفحة الأولى من دفتر زينب ، وعندما سألتها لمن هذا الحرف أجابتني بأنّه لصديقتها التي كانت تدرس معها في بغداد .

لا أذكر بأن هناك أصدقاء لزينب بحرف الميم، فهي كانت تعزل ذاتها عن محيطها ولا تعرف إلّا ثلاث فتيات.

هل يعقل بأن لزينب صديقة لم أكن أعرفها؟!

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

ربّما.

طلبت من زينب أن تبدأ بالطبخ، فلم يبق إلّا ساعة على عودة رعد وعمر.

آه يا رعد، عندما كانت نسمات الهواء تهبّ بقوة؛ كان يفتح نافذة المنزل ويقول لي : إنّ هذا الهواء محمّل بأشواق الأصدقاء والخلّان، لا شكّ أنّه قادمٌ من بغداد.

ماذا سيكون شعوره عندما يعلم بأنّ ذو الفقار أرسل له طلب صداقة؟

انتهت زينب من إعداد الطعام فوضعَته على الطّاولة بانتظار قدوم رعد وعمر لنتناول الغداء سويّةً.

حضرا وجلسا على مائدة الطّعام، فأخبرت رعد بأن ذو الفقار قد أرسل إليه .

قال : أحضروا الهاتف لي بسرعة، ثمّ كرّر ما قاله بلهفة .

اتّصل بذو الفقار، وبدأنا نتكلّم معه، ونسأله عن أهله وعن بغداد وعن المنزل، وهو يبادلنا الأسئلة ذاتها.

بعد حديثٍ طويلٍ قال ذو الفقار: لقد تزوّجت ابنة خالتي، متى ستزوّجون عمر؟

ابتسم عمر وردّ عليه: لن أتزوّج إلّا في بغداد.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

سأل رعد بتعجب : تزوّجت!

هل اشتريت منزلاً، أم أنّك تسكن مع أهلك؟

أجابه: لا، أسكن في منزلك يا عمي، إن خيرك حاضرٌ في حضورك وغيابك.

أُجهش رعد بالبكاء وقد ظهر الحزن على صوته ، فأعطاني الهاتف وأثنى رأسه على الطّاولة.

في هذه اللّحظات كانت زينب تهمس في أذني للمرة العاشرة: أمّي اطلبي منه أن يصور لنا منزلنا، فطلبت منه ذلك، ووعدني بتنفيذ ما طلبته .

بعد أن انتهينا من الكلام قال رعد: إنّ الزّمن يمحو قراراتنا، سأقول لكم شيئا لم تسمعوه من قبل، لقد قال لي عباس ذات يوم: لن أزوّج ذو الفقار إلّا لزينب، ثمّ أخرج صورة عباس من جيبه وبدأت تتساقط دموعه عليها.

ميسون

دمشق

٢٠٠٧/٣/٦م.

في الأيّام السّابقة كنتُ أطلبُ من زينب أن تأتي كلّ يومٍ إلى منزلنا للتسلية، وعندما كانت تعود إلى منزلها أشعر بنقص واضح في غيابها؛ لا يعوضه زوجي وأولادي، أما الآن فلا أريد استحضارها لأني مشغولة في المنزل، ولا أريدُ أن أُتعبها معي، ليتني رزقت بمولودة أقاسمها الفرح والحزن، واتخذها صديقة لي .

من أكثر ما يثير تعجبي تحوّل محمد المفاجئ في هذه الأيّام، فثمّة اختلاف واضح في أفعاله مقارنة بما سبق، كان شديد الغضب ، لا يدخل المنزل إلّا لتناول الطّعام، أو النّوم، أمّا الآن أصبح هادئاً، ولا يخرج من المنزل إلا لسبب دراسيٍّ.

لم أره مرة إلا وكان شارد الذّهن، كأنّ شيئاً جلل قد أصابه.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

في كلّ مرة أسأل عن حاله يجيب: لا شيء، عكس إجابة عينيه التي تقول لي : بي كلّ شيء، وإنّ العينان أصدق من اللّسان، فهما مرآة القلب، لكن يجب أن أساعدك ليتخلص ممّا يمر به بحكم أنّي والدته، حتى وإن لم أعرف السبب.

أعددت الغذاء الذي يحبه محمد نظراً لسوء تغذيته في الأيام الماضية، وعندما جلسنا على مائدة الطعام قلت لمحمد بعد أن سقط كأس الماء من يده : أقسمت بالله عليك أن تخبرني ما بك؟

قال مراد متعجباً: ما به؟ ثمّ نظر بعينيه قليلاً وقال لي: دعيه إنّه عاشقٌ.

فابتسمتُ وقلت: إنّي رأيت كلاماً في عينيه لم أجد له تفسيراً مناسباً سوى العشق، ثمّ أردفتُ قائلةً: محمد هل أنت عاشق يا روح أمك؟

حاول إخفاء ابتسامته لكن دون جدوى وقال: لا، ليس كذلك.

ملك

استنبول
٢٠٠٧/٣/١٥م.

حيّ قديم، عصافير وحمام، وأناسٌ من مختلف الأديان، وكلّها تعيش بأمنٍ وسلام، وكلّها تعيد ذاكرتي إلى دمشق.
اشتقت إلى منزلنا الدمشقي القديم العابق برائحة الياسمين؛ إلى إخوتي وأصدقاء الطّفولة في دمشق، إلى سماع خرير بردى، فرغم كلّ الجمال الموجود في استنبول ألا أنّني لا أرى أجمل من دمشق.
كم أتمنى أن أعود لها، وأشرب من مائها، وأدفأ في حضنها، لكن كانت توجّهات زوجي السّياسيّة تقف حاجزاً بيني وبينها.
بينما كنت غارقةً في تفكيري اتّصل بي محمد ابن أخي مراد، وقال لي: هل لديكِ للسرّ مكان؟ إنّ في قلبي شيء أريد الإفصاح عنه، ثمّ أردف قائلاً : شيئانِ، وليس شيئاً واحداً فقط.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت له: تكلم يا محمد، أقلقتني.

قال: لقد وقعت في فخ الدّخان، ولم أعد أستطيع الخروج منه.

صمتُّ قليلا وقلت له: والثّاني؟

قال: وقعت في العشق، وأريد أن تساعديني لأجد حلّاً لمعضلاتي.

قلت له: لا أعلم ما سأقول لك عن الدّخان، لكن أعلم ما سأقوله عن العشق، أصرف تفكيرك عن هذه الأشياء، إلى أن تتخرّج وتلتحق بخدمة العلم وبعدها تفكّر بالزّواج .

قال: لو استطعتُ صرف تفكيري عن هذه الأشياء لما سميتها معضلة، وأمّا عن خدمة العلم فقد دفع أبي لي بدلَ خدمة، أي أنّني لن أخدم.

قلت مبتسمةً: دعني أدخل في التّفاصيل قليلا، من هي سعيدة الحظ؟

قال: فتاة بغداديّةٌ، سكنت مع أهلها في منزل جدي.

سألته : هل حدث بينكما كلام أو أفعال؟

أجاب : لا، كلّ ما بيننا يقتصر على النّظر والتّفكير.

سألته: وهل عرفت بأنّها تحبك بسبب نظراتها فقط؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجاب: ليس بسبب النّظرات فقط، كانت أمّي تستدعيها كلّ يوم، وفي أحد الأيّام رأيت حرف اسمي واسمها على يدها.

أغلق خطه بعد أن سمعتُ أمه تقول: يا محمد لقد أتى عمّك رعد وخالتك نبيلة، وابنتهم، تعال وجالسنا.

يالهذا الولد المغفّل، ألم يجد غيرها؟!

حتماً ستعود ذات يوم إلى بلدها، وينتهي هذا الحب الذي بينهما، لكن ربما يتجاهل عقله، ويتّبع قلبه.

دائماً يتّخذ العقل قرارات صائبة، لكنّه يتنازل عن تنفيذها بسبب إعلان بعض الأعضاء تضامنها مع القلب؛ فترفض العينان النّظر لغير ما يريده ، وتُغلقُ الأذنان أبوابها أمام كلّ قرارٍ يستعين به العقل، ويرفض الأنف أن يشتمّ شيئاً غير رائحة المحبوب، وتُشلُّ القدمان في الطّرق الّتي لا تودي إليه، فيُجبر العقل على رفع راية الاستسلام ويُرجع سيفه إلى غمده مهزوماً أمام القلب.

فكّرتُ بالأمر قليلاً، وقلت: كلّ شيء نجهل مصيره لا يجب أن نحكم عليه، ها أنا قد تزوّجت من فلسطينيّ، وجئت معه إلى استنبول، إنّ الإنسان في الحبّ مسيّرٌ، لا يستطيع أن يخالف أوامر قلبه.

محمّد

دمشق

١٥/٣/٢٠٠٧م.

عندما جلستُ مع عمّي رعد وزوجته كانت أمي تجلس بجانبي، وعمّي وعائلته أمامنا، لم يكن أبي معنا، وفجأة طُرق الباب، فخرجت لأفتحه.

قالت أمّي بصوت عالٍ: من الطّارق؟

أجبتها: إنّه عمر يريد عمّي رعد .

قالت: دعه يدخل.

دخل عمر وقال لأبيه: إنّ صديقك حسّان ينتظرك في المنزل، لقد رآني في السوق، وطلب رؤيتك .

خرج عمّي رعد مع ابنه بسرعة ولهفة إلى منزلهم، وأنا استأذنت للخروج لأنّه لم يبق رجلٌ سواي معهنّ، فقالت خالتي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نبيلة: اجلس، فأنت مثل أولادي، تلعثمت في الكلام قليلاً، فأجبرتني على الجلوس.

جلستُ أمام زينب، ثمّ نظرتُ إليها بطرفِ عيني، كانت عيناها شعاعين من النْور، ووجنتاها حبّتين من الكرز.

وخصرها عود نحيل من الرمان؛ يحمل ثمرتين ناضجتين .

إنّ الجمال كان منحازاً لها بشدّة، فقد أعطاها من الحسن ما يُعجّز الشّعراء والأدباء عن وصفه، ووجودها أمامي في هذه اللّحظات يجعل روحي تشعر بالدفء.

سرت طمأنينةٌ في قلبي، وفي لحظة نادى مؤذن فيه: حيّ على الحبّ، حيّ على العشق.

سمِعْتْ زينب صوت الآذان دون غيرها، فلبّت، ونظَرَتْ نحوي، نظرتُ في عينيها فوجدتها تقول: أريد أن أقيم صلاة العشق في قلبك .

فكّرتُ قليلاً ثمّ قرّرتُ أن أعطيها رسالةً ورقيّةً في هذا اليوم، فاستأذنتُ للخروج بذريعةِ الدّراسة، وذهبت إلى غرفتي وأحضرت ورقة، وأمسكت قلماً، وكتبت، إلى من نزلت بقلبي منزل الوتين: سلام لك من دمشقيّ أُصيبَ بسهام عشقك، إنّي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أحبّك، ولا أستطيع صرف تفكيري عنك، وآن لي أن أكتبها لكِ دون خجل.

إن وجودك جعلني أحبّك، وأحبّ عائلتك ومدينتك، وكلّ شيء له صلة بكِ .

اعلمي أنّي حاولت إخفاء حبّي، لكن عيناي فضحت أمري فهي مرآةٌ لقلبي، وقد أظهرت لكِ كلّ ما بداخله.

في الأيّام الأخيرة كنت أراك مع أمي تغرّدين كالطير في أجواء منزلنا، فجرى حبك بداخلي مجرى النفس الذي لا تكتمل الحياة بدونه.

كتبت في آخر الصّفحة رقم هاتفي واسمي، ثم وضعتها في ظرف معطّر، وبدأت أنتظر فرصة مناسبة لأسلّمها لزينب.

نظرتُ من النّافذة، كانت هناك وردة حمراء مزروعة في وعاء، وزينب بجانبها تشتمّ عبقها، فخرجتُ من غرفتي وقلت: أمّي سأعود بعد قليل.

لم يكن قصدي أن تعلم أمّي، كنت أريد أن تلتفت زينب نحوي.

أرادت زينب دخول الغرفة، لكني أشرتُ لها بيدي طالباً منها الانتظار، فظهرت علامات التّعجب على وجها، والتفتَت يميناً ويساراً، فأعطيتها الرّسالة وخرجت من المنزل.

زينب

دمشق

٢٠٠٧/٣/١٥م

منذ ساعات وصلت منزلي، ولم أستطع قراءة الرّسالة الّتي أعطاني إيّاها محمد حتّى الآن.

حلّ المساء فدخلتُ غرفتي، وأغلقت الباب ثمّ أخرجتُ الرسالة، وفتحت الظرف وبدأت أقرؤها، فشعرتُ أنّ محمد يقرؤها لي الآن، وبعد أن انتهيت استلقيت على ظهري ووضعتها على عينيّ ثم ضممتها وقبّلتها.

فكرت قليلاً، ثمّ قرّرت أن أتغلّب على خجلي وأكتب له ردّاً على رسالته، ودعيتُ أن يهبني ربّي القوّة لأعطيه إياها.

كتبت: وأخيراً تجرّأت وأخبرتني عن حبّك لي .

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

عزيزي محمد: إنّي رأيتُ بغداد في عينيك، وشدني الحبّ إليها، وأشعر أنّك شيء أنتظره منذ زمن بعيد ليعوضني عن كلّ ما فقدته في سنوات عمري الماضية .

عزيزي محمد: أمّا وقد قُدّر لنا أن نجتمع في روح واحدة فإنّي لا أطلب منك إلّا أن تكون نقيّاً مخلصاً في حبّك لي .

بالمناسبة : ليس لديّ رقم كي أتّصل بك، فالهاتف الّذي تراني أحمله هو لأمّي وأبي، وقد وعداني أن يشتريا لي هاتفاً عمّا قريب.

وفي اليوم التالي استيقظت على غير عادتي، وكأن اليوم الّذي قد مضى غيّر شيئاً في الحياة .

وجدتُ طيراً من الحمام يقف على نافذة الغرفة، فأمسكته وكلّمته عن حالي مع محمد، وعن عومي في بحر العشق لأوّل مرّة، ثمّ أطلقتهُ، ونظرتُ نحو السّماء، كانت مليئة بالغيوم وتكاد تمطر، وهذه الأجواء من أكثر الأشياء المحبّبة لدى العشاق، ثمّ تحسّستُ الرسالة التي دسستها بين صدري وثيابي، وتساءلت، إلى متى ستبقى هنا؟

أحضرتُ دفتراً وكتبت: يُقال أنّ الحبّ لا يعرف المسافات، ولا اللّون، ولا حتّى الديانة، لو كان المتناحرون في بغداد يعلمون

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نتائج الحرب منذ البداية لتقبلوا الآخر بكلّ صفاته، كما يفعل الحبّ، ثمّ طويت الصّفحة وبدأتُ بواحدة جديدة، كتبتُ فيها: للحربِ آثار إيجابيّة، فلولاها ما كنتُ في دمشق الآن، ولا أحببت محمد، وهذا التّعارف الجديد مائل للتّصنيف مع النّتائج الإيجابيّة لها، وأظنّ بأنّ قدري أتى بي إلى دمشق لآخذ قسمتي من السّعادة، ثمّ أغلقت الدفتر وأخذتُ نفساً عميقاً بعد أن أغمضت عيني، فوجدتُ سؤالاً يدور في ذهني، ما الّذي يفعله الدّمشقيّ محمد في هذه اللّحظات؟

نبيلة

دمشق.

٢٠٠٧/٣/١٧م.

في آذار تتصارع العوامل الجويّة مع بعضها للسّيطرة على الأجواء، فكان الجو في هذه الأيّام متقلّبا.

خرج رعد وعمر إلى عملهم، وبقيتُ مع زينب في المنزل، أشعر بأنّ المرض قد تخلّل جسدي عندما تعرّضت للهواء بعد الاستحمام، فطلبتُ من زينب أن تصنع لي كوباً من البابونج المغلي، وذهبت إلى غرفتي، شعرتُ بالبرد قليلاً فاستلقيت على سريري وتلحّفتُ بغطائي بعد أن شربت كأس البابونج، وبعد ساعات أصبح جسدي يرتعش من البرد تزامناً مع آلام في المفاصل، وسخونة اجتاحت طبقات جلدي، كانت مناعة جسدي ضعيفة جداً، وأظن أنّ المرض كسر حاجز الدّفاع الأول عن جسدي.

دخلت زينب، ورأتني على هذه الحال، ثم طلبت منها أن تذهب لتبحث عن أبيها كي يأخذني إلى الطبيب.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قالت زينب متعجبةً: أنا لا أعرف شيئاً هنا .

اشتدّ بي الألم أكثر، وبدأت أصرخ، وزينب تجري حولي وتقول بحزن : يا إلهي ماذا سأفعل؟

وبعد قليل جثت بجانبي وقالت: سأذهب وأقول لعمّي مراد، انتظريني قليلاً.

غابت زينب لبضع دقائق، ثمّ عادت مع محمد وميسون، فسألتها: ألم يجدوا أباكِ؟

أجابت: لا، أخبرني محمد بأنّه سيأخذك إلى الطّبيب مع والدته.

اتكأتُ على زينب وميسون حتّى خرجتُ من المنزل، كانت السيارة تنتظرنا عند الباب.

جلس محمد بجانب السائق في المقعد الأماميّ، وجلستُ بين زينب وميسون في المقعد الخلفي.

وصلنا إلى عيادة الطّبيب، وبعد أن شخّص المرض أعطاني حقنة وريدية، وبعض الحبوب، وشرح لزينب عن أوقات تناولها.

همست زينب في أذني: أمي هل تحملين نقوداً؟

أشرت لها برأسي نحو الأعلى، أقصد لا.

زينب

دمشق

٢٠٠٧/٣/١٧م.

أنا أؤمن بأنّ كل شيء نمر به _ مهما كان غريباً _ مُساقون إليه.

عندما سألت أمّي إن كان معها نقود ولم أجد وضِعتُ في موقف محرج، فخالتي ميسون ذهبت لتبتاع بعض الحوائج من السوق، والطّبيب ينتظر حسابه من المال، ولا يوجد غير محمد في المشفى.

كان المبلغ المطلوب مئة ليرة، وأنا لم يكن معي سوى خمسين ليرة سورية، أخرجتها وذهبت لمحمد، فأردت أن أتكلّم لكنّي لم أستطع، وعندما التفتُ للعودة قال محمد: زينب هل حصل لأمّكِ مكروه ؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نظرتُ إليه بخجل، وقلت له: لا، لكن لا يوجد معنا من النّقود ما يكفي لإعطاء الطّبيب.

قال لي: أنا سأتكفّل بمحاسبته.

أعطيته الخمسين ليرة، وبعد أن أصبحت في يده، لاحظتُ وجود الرسالة الّتي كتبتها له بيده مع الخمسين، فوضعَ الرّسالة في جيبه، وأعاد نقودي لي، ثمّ قال: سأحاسبُ الطّبيب، وأنادي لأمّي كي نذهب، هيّئوا أنفسكم.

امتزجت مشاعر الخوف والخجل في داخلي، وبدأت أسأل نفسي ماذا ستكون ردّة فعل أبي وعمر إن علما بذلك؟!

رعد

دمشق
٢٠٠٧/٤/١٢م.

يوم الغد عطلةٌ في الدّائرة الّتي أعمل بها، لذلك سأتأخّر في السهر، جلستُ في جنح الليل، أقرأ كتابا عن بغداد تحت مطارق الحنين، وبعد أن شعرت بالنّعاس صنعتُ كوباً من القهوة واحتسيته على إيقاع النسيم.
حنينٌ مكثّف إلى الماضي، رغم المحاولات المتكرّرة نسيانه كي أعيش واقعي.
خرجت زينب من غرفتها، واتّجهت نحو المطبخ.
أُدهشت لما رأيتها، وسألتها: لِمَ لم تنامي بعد؟!
أجابتني: لم أستطع النّوم، وأشعر بالجوع، هل تأكل معي؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كنت جائعاً أيضاً، لكنّي لم أسمع نداءات معدتي إلى أن عرضت زينب علي الطعام، فأحضرَتْهُ، وعندما انتهينا جلستُ اتسامر معها فقالت لي: أبي أكاد أختنق هنا، فليس لدي أصدقاء أَجالسهم، والدّراسة قد تركتها لظروفنا الماديّة، ولم أعد أستطيع العودة لها الآن.

رقّ قلبي لحالها، أعانها الله، فأنا أشعر بالضّجر رغم عملي وسهري ومخالطتي للناس، فكيف شعورها وهي مقيّدة بين أربعة جدران؟!

قلت لها: هذا قدر الله علينا يا ابنتي، فلو كنّا نستطيع أن نغيّر حالنا للأفضل لفعلنا، لكن هل أستطيع مساعدتك بشيء يخفّف عنك حمولة بالضّجر؟

أجابت: نعم يا أبي أريد هاتفاً يشاركني وحدتي، صحيح أنّي استخدم هاتفك في بعض الأحيان لكنّه لا يبقى معي دائماً.

قلت لها: اصبري حتّى بداية الشّهر القادم، وأعدك أنّي سأشتري لكِ هاتفاً.

سرّت زينب، وقد ظهرت على ملامحها السّعادة، فأحاطت عنقي بذراعيها ، وقبّلت رأسي ثم استأذنتني للنوم.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

زينب الطفلة الّتي لا تكبر، ما عهدتها إلّا مؤنسة، حنونة، رقيقة، فلن أحرمها ما يجعلها سعيدة.

الفتاة المسكينة، فهي لا تملك أصدقاء ولا مدرسة، معظم وقتها مع الصّحون في المطبخ، ومع أدوات التنظيف في فسحة المنزل، قد وعدتها أن اشتري لها هاتفاً عندما كنّا في بغداد، لكن كان للحرب رأي آخر، أمّا الآن فسأشتريه لها مهما كلّفني الثّمن وساءت الظروف.

زواج عمر وزينب أمنيةٌ تحتلّ المرتبة الثّانية بعد العودة إلى بغداد، فكم من مرّة يجب أن ألعن الحرب! لولاها كنت أداعب أولادهما الآن.

عندما وضعتُ رأسي على الوسادة بجانب نبيلة، بدأت أفكر، هل سنصبح مثل الفلسطينيين الّذين تركوا ديارهم _ أثر النّكبة _ ومازالوا يحلمون بالعودة إليها حتّى الآن؟

دمشق
٢٠٠٧/٤/٢٥م

ذات يوم أخبرت مراد عن تصرّفات محمد غير الطبيعيّة فلم يكترث لها، وقال لي بعد ابتسامةٍ: دعيه إنّه عاشق.
ظننت أنّه قالها مازحاً، لكني بعد أن رأيتُ محمد صباح اليوم وهو يقدّم وردة لزينب علمتُ بأنّه كان يعي ما يقول.
أكاد لا أصدّق أنّ زينب الخجولة تتجرّأ وتُقدم على العشق.
هو من دمشق وهي لاجئة من بغداد، ونهاية المغترب العودة إلى وطنه، فكيف لم يفكرا بهذا الشّيء؟!
ربما كانا لاهيين عن الأفكار الّتي تريد إبعادهما عن بعضهما.
آهٍ من العشق، فهو مثل القمر، له وجهان، أحدهما مظلم والآخر منير، نعيمٌ لا يحول إن انتهى بنتائج إيجابيّة، وبؤس لا يزول إن كان عكس ذلك.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

دخل مراد الغرفة واستلقى على سريره فسألته: هل تذكر عندما كنت تقف تحت نافذة غرفتي لتسرق من الزمن لحظات معي؟

أجاب ضاحكاً: أذكر، لكن هل تذكرين أمّك عندما رأتنا وقامت بضربك؟ كان العشق محرماً في شريعة العادات يا ميسون، أذكر أيضاً أنّي قررت الهروب من دمشق إلى منزل خالتي في حلب.

أفرطتُ في الضّحك، وسألته: ماذا سنفعل إن وقع أحد أولادنا في العشق، هل سنعامله كما كنّا نُعامل؟!

أجاب: حتماً لا، سأتقبّل الأمر، وأساعده ليتزوّج من محبوبته، فالعاشق ظمآن لا يرتوي إلّا بمن يحب.

صَمتَ قليلا ثمّ أردفَ قائلاً: لو أنّك لم تصبحي زوجتي لبقيت ظمآناً طيلة حياتي، فالنّساء كالماء وما كلّ الماء يروي يا ميسون.

سألته مجدّداً: هل كنت ستجّن مثل قيس؟

أجاب: لا يمكنني التنبؤ بمصيري حينها، لكن حمدا لله أنّنا خرجنا بنتائج إيجابيّة، أردتُ الردّ عليه فأردف قائلاً: ستسألينني عن مصيرك حينها، أليس كذلك؟ حسناً أظنّ أنّك

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كنت ستتعايشين مع رجل غيري خوفاً من أن يتمّ محاكمتك في دستور العادات والتقاليد.

أنهيتُ حديثي معه، ذهبتُ إلى المطبخ، وأعددتُ إبريقاً من الشّاي، قبل أن يتمّ عرض الحلقة الأخيرة من مسلسلي المفضل؛ المسلسل الّذي يثبتُ أنّ العشق مقدّسة، فهو يتكلّم عن قصّة حبّ بين شاب، وفتاة أُصيبت بالسّرطان فقصّت شعرها، ووضعته في صندوق خشبيّ، وأوصت شقيقتها أن تعطيه لحبيبها بعد أن تموت، وعندما ماتت نُفِذت وصيّتها، فكتب حبيبها رواية بعنوان: تلك الجديلة، ثمّ توفي بعد أن أصدرها بعام ونصف إثر جلطة كان سببها قهره على فراق محبوبته.

محمد

دمشق
٢٠٠٧/٥/٣م.

ظننتُ أنّي لن أعشق طيلة حياتي، لكن تلك البغداديّة أصبحت تسري في عروقي.
ما أجمل العشق! يرمّم كلِ جرح، ويضيء كلّ ظُلمةٍ فينا.
كم أشتهي أن ألتقي بزينب، ويكون لدينا من الوقت ما يكفي للنظر والقبل والعناق.
بينما كنتُ مستلقيًا على سريري شعرتُ بأن زناد الشوق قد قدحت في قلبي وضلوعي، فقرّرتُ أن أذهب إلى منزل عمي رعد لعلني أرى محبوبتي.
غيّرت ثيابي وعطّرتها ، ثمّ خرجت من غرفتي.
رأتني أمي من نافذة غرفتها فقالت لي: رائحة العطر ملأت جوّ دمشق ، إلى أين أنت ذاهب؟
أجبتها: إلى منزل صديقي، هل تريدين شيئاً؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

ردّت: لا، وعندما مشيت كأنّي سمعتها تقول: كاذب، فالتفتُ نحوها وسألتها: هل قلتِ شيء؟!

أجابت: لا، لا.

أصبحتُ في منتصف الطريق الّذي يوصل منزلنا بمنزل جدي؛ الّذي يسكنه عمّي رعد، توقفت وقلت: ماذا لو لم أجد عمّي رعد أو ابنه في المنزل؟!

حسناً، إن لم أجد أحدهما ستفتح الباب زينب، وسأراها، وهذا ما أريده.

طرقتُ الباب، ففتحه عمر، وعندما رآني قال لي: ما هذه الصدفة الجميلة! لو أنّك لم تأتي لذهبت لاستحضارك.

سررتُ عندما قال لي ذلك، فسألته بخجلٍ : هل سنبقى واقفين عند الباب؟

أجاب بالتأكيد لا، انتظرني قليلاً سأحضر المال ثمّ نذهب إلى محلّ الهواتف كي نشتري هاتفاً.

أحضر المال وعندما خرج سألته: هل عمّي رعد هنا؟ أريد أن ألقي السّلام عليه.

أجاب: نعم هنا، لكن تُلقي السّلام عليه فيما بعد، دعنا نذهب الآن.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وفي الطريق سألني: هل لديكَ خبرة في الهواتف؟

أجبت: نعم، لكن لمن الهاتف؟

ردّ عمر: لزينب.

هذا أجمل خبر أسمعه في هذا اليوم، إذاً سأتكلّم مع زينب عبر الهاتف، وسأراها اليوم عند عودتنا منزلهم.

اشترينا هاتفاً، ونزّلنا عليه تطبيقي" الفيس بوك، والواتساب" ثمّ خرجنا من المحل وأنا كلّي سرور لأنّي سأرى زينب، وفي منتصف الطّريق وقفت سيّارة بجانبنا فنظرتُ إلى السّائق وإذ هو صديقي خالد الّذي تخاصمت معه من قبل.

نزل من سيارته وصافحني وعانقتني، وبدأ يطلب منّي أن أسامحه، وأذهب معه إلى منزله.

قلت له: سامحتك لكنّي لا أستطيع الذّهاب معك، فلديّ ما يُشغلني.

قال عمر: بوركت يا محمد بإمكانك الذّهاب، أنا سأوصل الهاتف وأُبلغُ أبي تحيّاتك.

أقسم خالد عليّ للذهاب معه، ثمّ فتح باب سيارته ودفعني إلى داخلها، ومضينا إلى منزله.

زينب

دمشق.
٢٠٠٧/٥/٥م.

وأخيراً أصبح لديّ هاتف يساعدني بالقضاء على الضّجر، ويصبح صلة وصل لي مع محمد، لكن ثمّة عطل بسيط في تطبيق الواتساب عليه، وعندما أخبرت والديّ وأخي عمر قالوا لي: لانعرف إصلاحه، حين تذهبين إلى منزل عمّك مراد أخبري عائلته لعلّهم يستطيعون إيجاد حلّ له.
بعد تفكير قرّرت أن أذهب إليهم هذا اليوم.
كانت السّاعة العاشرة صباحاً، ارتديتُ بنطال جينز ضيّق، وكنزة سوداء مع وشاحٍ وحذاء أبيض، ووضعت أحمر الشفاه، والكحل، ثمّ حملت حقيبتي على كتفي ونظرتُ في المرآة قائلةً: حتماً سيفتن محمد.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وصلتُ منزلهم، ففتحت خالتي ميسون الباب بعد أن طرقته، وجلسنا في فسحة المنزل.

تكلمنا قليلاً، وبعد أن عرضتُ مشكلتي عليها قالت لي: انتظري حتى يستيقظ محمد فلديه معرفة بهذه الأشياء.

قلت: لا، سأذهب الآن و سأعود في وقت لاحق.

قالت: لن أسمح لكِ بالذّهاب فليس في المنزل سوى أنا وأنت ومحمد، ستتناولين الغداء معنا ، ثمّ إذا أردتِ العودة سأسمح لكِ.

بعد أن خرج محمد من غرفته قالت له خالتي ميسون عن مشكلة التّطبيق، وبثوانٍ قليلة استطاع إصلاحه.

***

عندما أصبح الغداء جاهزاً، جلسنا حول الطاولة، و أكلتُ مع محمد وأمّه على استحياء، كان الأكل طيّباً شهياً، ولما امتدحه محمد قالت والدته ممازحةً: هو طعامٌ لذيذٌ، ممزوجٌ بالقليل من التّوابل على يد زينب، ونظرَتْ لي بابتسامة، وكأنّها تعلمُ بحبّنا لبعض.

كَسَرَ محمد حاجز الخجل أمام أمّه وسألني: ما هو طموحك بعد أن تركتِ الدراسة؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نظرتُ إلى أصابع يدي خجلاً، وبدأت أفكر بما سأقوله.

نظر محمد في وجهي متأملاً وكأنّه في ليلةٍ صيفيّةٍ يحدّق في السّماء ويعدّ النّجوم

قلتُ مقاطعةً تأمّلاته، طموحي وحلمي أن أعود إلى بغداد.

ردّ محمد: ألا يوجد شيءٌ آخر؟

أجبتُ باستغراب: شيءٌ مثل ماذا؟!

قالت ميسون: كالزّواج من فارس الأحلام! وبدأتْ ترسمُ قلباً يشير إلى الحبّ على الطاولة.

لحظتها اعتراني خجلٌ شديدٌ، فاستأذنتهم لأغسل يديّ في المطبخ، وقد وددت لو تبتلعني الأرض .

لحقت بي خالتي ميسون وقالت: وراء الخجل رغبات مسكوت عنها وكلمات تنتظر أن تُقال فلا داعي لأن نجعل منه قيوداً، يجب أن نستغلّ كلّ لحظةٍ من الزّمن، وخاصّة في مرحلةِ الشّباب، يا زينب، ستطاردك كلّ المرات الّتي كان عليكِ أن تتكلّمي فيها وصمتِّ

مراد

٢٠٠٧/٥/١٠م.

بعد أن انتصف النّهار اصطحبت رعد وخرجنا للتنزّه على جبل قاسيون، وعندما حلّ المساء ذهبنا إلى المقهى المتربع على كتف الجبل.

قلت لرعد: منذ أربعة أعوام كنت هنا أشاهد الأخبار عندما سقطت بغداد، وكأنّها ليلة البارحة.

قال لي بتأسّفٍ شديد: بل كلّ يوم بعام، فمازلنا نرثي وطننا إلى يومنا هذا.

سألته: ألم تعتد على الإقامة في دمشق؟

أجاب: لا، لا تظنّ أن الوطن يُنسى، أنا أرى بغداد في الشّمس، والهواء والماء ثمّ أردف قائلاً: صدقني لا أرى إلّا بغداد.

سألته: وهل هناك أمل في العودة؟

أجاب: كان لدي صديق اسمه عباس؛ توفي إثر قصف منزله، سألني أحد أولاده عن العودة فأجبته: سنعود بعد أيّام قليلة، والآن لا أظنّ بأنّنا سنعود.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلتُ له محاولا التخفيف عنه بعد أن ظهر عليه الحزن: سنزوجك بامرأة دمشقية، وتستقرّ هنا دون التفكير بالعودة إلى بغداد.

سألني: هل تظنّ أن دمشق في مأمن؟

أجبته متعجباً: ولم لا؟

قال: سأترك الإجابة للأيّام المقبلة، يا مراد، إنّ الشّعوب تُهلك بقلة وعيها، ألم تسمع بأنّ العراق قد كان من أقوى الدول في العالم اقتصادياً وعسكرياً والخ... ومع ذلك وقع في متاهة الحرب، ولم يستطع الخروج منها، وكلّ ذلك نتيجة لقلّة الوعي والإدراك.

قلت له: دعنا نطوي صفحة هذا الحديث، أريد استشارتك بأمرٍ ما؛ لديّ مبلغٌ من المال، أريد الاستفادة منه في مشروع، أو ما شابه ذلك فبمَ تنصحني؟

قال: لدي فكرة رائعة بالنّسبة لي، لكن ربما لا تعجبك؛ مكتبة للنّشر والتّوزيع.

قلت: المبلغ المتوفّر معي لا يكفي.

قال: ما رأيك أن أكون شريكاً لك؟

سألته: أتتكلم جاداً؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجاب: نعم، وبعد أن صمتُّ قليلاً قال لي: لا أريد ردّاً منك الآن، فكر مليّاً ثمِ أخبرني.

عندما عدت إلى المنزل وأخبرت زوجتي وأولادي بما حصل ردّ محمد بسرعة قبل أن أنهي آخر حرف: نِعْمَ الرأي رأي عمّي رعد، لا تتردّد يا أبي، فهذه فرصةٌ لن تتكرّر.

أمّا ميسون فقد أعجبتها الفكرة، وفضلتها على بقائي دون عمل.

اتّصلت برعد وأبلغته موافقتي، ثمّ نظرتُ إلى زوجتي وأولادي مبتسماً وقلت لهم: ربّما سيكون هذا اليوم مفتاحاً لسبلٍ جديدةٍ لا نعرفها، سنبدأ بالتّجهيز يوم غد.

نبيلة

دمشق

٢٠٠٧/٥/١١م.

في مطلع الصّباح أحضرتُ القهوة، وجلستُ مع رعد تحت شعاع الشّمس المتسلّل إلى غرفتنا من النّافذة .

دار حديث بيننا فقال: لقد اتّفقت مع مراد على أن نفتح مكتوبةً للنّشر والتّوزيع، وهذا أكثر عملاً يناسب رجل متقدم في السّن مثلي.

سألته متعجّبة: ومن أين لك المال؟!

نظرَ إلى أسواري الذهبيّة طويلاً، فابتسم وأشار بعينيه إليهم وقال: من هنا.

رددتُ ممازحةً: وإذا لم أعطك إيّاهم؟

أجاب: أبيع منزلنا في بغداد. يجب أن نغرس جذوراً لنا في دمشق كي نحافظ على أولادنا بعد رحيلنا، ومن أجل أن نعيش حياة كريمة في ما تبقى من عمرنا.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

لأنّي أعيشُ مع رعد _ رفيق العمر _ جسدان بروحٍ واحدة خلعتُ أساوري وحلقي، ووضعتهم أمامه، ثمّ وضعتُ يدي على كتفه وقلت له: المال والرّوح لك، افعل ما تريده.

اتّصل به مراد وقال له: بعد نصف ساعة سنذهب لنشتري ما يلزمنا لافتتاح المحل.

تهيّأ رعد ثمّ خرج ليبيع الذّهب، وأنا عزمت على أن أنظف المنزل كاملاً هذا اليوم.

لم أشأ أن أوقظ زينب لأنّها نامت مؤخراً ليلة أمس.

***

يقال : "إذا أردت أن تعرف الإنسان عاشق أم لا أسأل عينيه لأنّها مرآة قلبه" وعيون زينب تخبرني في الآونة الأخيرة بأنّها عاشقة .

وجدت ورقةً في دفتر زينب _أثناء تنظيفي لخزانتها _ مكتوب عليها: بي من الجهل ما يكفيني، وفيكِ من العلوم بغداد، في قلبي ظمأ، وفي قلبك نقاء دجلة الفرات، وأنتِ تعلمين ما المراد.

لو كان المتنبي حيّا لأعتزل تمجيد الأمراء، والتفت لتخليد جمالك في دواوين الشعراء.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

من عاشق دمشقيّ لفتاة بغداديّة.

أمسكتُ الورقة بيدي، وأيقظت زينب ثمّ قلت لها : ما هذا الذي رأيته بخزانتك؟

نهضَتْ من فراشها مرتبكةً، وقالت ماذا، ماذا وجدتِ؟

لقيتُ الورقة على وجهها وسألتها متجهمةً: ممن هذه، ومن هذا الدمشقيّ؟

قالت بعد أن سحبت نفساً عميقاً: أخفتِني يا أمّي، ألهذا السبب أنت غاضبة؟!

البارحة رأيتُ منشوراً على الفيس بوك يُطلب به من المشاهد أن يتخيل نفسه دمشقيّاً، ويحب فتاة عراقيّة، ثمّ يكتب لها رسالة، وأنا أعجبتني الفكرة فلم أشأ أن أكتبها على الفيس بوك، فكتبتها على دفتري وشققت الورقة، واحتفظت بها.

تظاهرتُ بأنّي اقتنعتُ بحجتها، وأنا عكس ذلك تماماً، فقلت لها: سيخرّب عقلك هذا الهاتف، انهضي وساعديني في تنظيف المنزل.

رعد

دمشق
١٥/٥/٢٠٠٧م.

بعد أيّامٍ من الجهد وضعت اللّمسات الأخيرة في افتتاح المكتبة، واتفقت مع مراد أن يبدأ بالعمل صباحاً حتّى الثّالثة مساءً، وأنا أكمل بعده إلى أن أغلق المكتبة، وقد اخترت هذا الوقت لأوفّق بين العمل والوظيفة.
استيقظتُ باكراً، وشربتُ القهوة مع نبيلة بجانب النافورة على أنغام زقزقة العصافير الّتي تحيّ روح العشق فينا.
كان لقهوتها طعم خاص بها، فهي مزيجٌ من الحبّ والبنّ مغليّة على أنفاسها الّتي لا يكتمل ارتوائي دونها .
سألتها: أتعلمين ما أعظم انتصار حققته طيلة حياتي؟
صمتَت مفكرة بإجابتي، فمددت يدي ورفعت خصال شعرها، المتلألئ بالسّواد والبياض عن وجهها، وقلت لها: أنت، نعم أنت.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

بعد حديث صباحي مليء بالغزل استيقظت زينب وجلست معنا فطلبت نبيلة أن أزيدها معرفة عن مراد.

قلت لها: يحمل من اسمك معناه، هو غيمةٌ معطاء ، يملك مرهماً في لسانه يداوي به ذوي القلوب المكسورة، أفعاله خالية من الرياء، إن يتكلّم صدق، وإن حُدِث بسرّ كتم، ثمّ أنهيتُ حديثي معها، وذهبت إلى الدائرة الّتي أعمل فيها لآخذ إجازة يوميّة، وعندما عدت استلقيْتُ لآخذ قسطاً من الرّاحة، ولم أكن أعلم أني سأغط في نوم عميق.

استيقظت السّاعة الثّانية ونصف ضهراً على صوت نبيلة فنهضت مسرعاً، وهيّأتُ نفسي للذّهاب إلى المكتبة.

سألتني نبيلة: متى ستعود إلى المنزل؟

أجبتها ممازحاً: حين تشتاقين لي، ثمّ أردفتُ قائلاً: أخبري عمر أن يلحق بي كي أطلعه على بعض الأمور الهامة بالعمل، وأنا قد أعود بداية الغروب .

وصلتُ المكتبة متلهفاً لبدء العمل ، كانت تقع على مفرقٍ من التقاء الطّرق بجانب مقهى قد شيّد حديثا، وكان داخلها عدّة رفوف خشبيّة مزيّنة بالورود، ومقسّمة على نوع الكتب من فلسفة وتاريخ. الخ...، كما يوجد قسم للطباعة، وطاولة في صدر المحل لإدارة العمل.

سألتُ مراد: كيف وجدت العمل فيها؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجاب: لا ينقصني سوى جلب سريري للنوم هنا.

رددتُ ممازحاً: اذهب لمنزلك، كأنّك تريد هدم المكتبة فوق رؤوسنا على يد ميسون !

بعد انصرافه جلستُ وراء الطاّولة أتلفّت يميناً ويساراً، أفكّر بما سأقرأه، وارضاءً لرغبتي في المقارنة بين سقوط بغداد الأوّل والثّاني على أسسٍ صحيحة وحقائق ثابتة؛ بحثت عن كتاب يتحدّث عن أيّام سقوطها على يد هولاكو ١٩٥٨م .

محمد

٢٠٠٧/٥/٢٢م.

بعد غروب الشّمس بقليل اتّصل بي صديقي خالد وأخبرني أنّه يشعر بالضّجر، ثمّ طلب منّي أن أخرج معه إلى المقهى في جبل قاسيون. وافقت على طلبه، وخرجت معه، وعندما وصلنا جلسنا حول طاولة تراثيّة مزخرفة، وهذه المرة الأولى الّتي أذهب فيها إلى مقهى قديم. نظرتُ حولي ، كان لدمشق وجه بهيج كعروسٍ متبرّجة في ليلة زفافها.

سألني خالد: ماذا ستشرب؟

أجبته: الشّاي.

نادى للنادل وقال له: أحضر لنا أركيلة مع كوبين من الشاي.

لبى النادل طلبنا، وعندما بدأت بشرب الأركيلة التفت جانباً فوجدتُ أبي قادم نحونا، ولمّا وصل تجهّم وجهه وقال: هل هذا ما ربيتك عليه يا محمد، تدخن وتأركل وتخفي عني؟

لم يكن ظني بك هكذا، ورددها ثلاث مرات ثمّ انصرف دون أن يسمع مني أي مبرّر.

قال خالد: لا تهتم، ألم أقل لك بأنّ هؤلاء الكبار يرون الشّوكة رمحاً ويريدون منّا أن نراها كذلك؟

قلت له: معك حق، لكن يجب أن أطلب الصّفح من والدي، فوافقني الرأي وقال: لا بأس افعل ذلك عندما تعود إلى المنزل.

رحتُ أتأمّل جمال المكان، وفي كلّ دقيقة يردّد صوت بداخلي: آه، لو كانت زينب بدلاً من خالد.

أنهيتُ من سهرتي، وعدتُ إلى المنزل، فوجدت أبي بانتظاري.

أمسكت يده وقبّلتها طالبا الصّفح فقال لي: يا بني، إنّ الدّخان مديةٌ تُغرسُ في الجسد فتصبح جزءاً منه إن لم يتم اقتلاعها على الفور.

أتعلم بما كنت أردّ على والدتك عندما تحذّرني من وقوعك في تلك الحفرة؟

كنت أقول لها: لقد بذرنا قمحاً، وبذرة القمح لا تنبت شوكاً، والآن سأعتبر ما حصل خطأ غير مقصود، فلا تخيب ظنّي بكَ يا محمد.

صمتَ قليلاً ثمّ قال: اليوم سررت كثيراً عندما امتدحك رعد أمامي.

رددتُ قائلاً : حقّاً يا أبي؟

أجاب : نعم، وآمل أن يبقى عطر سمعتك فوّاح.

***

كانت السّاعة الحادية عشر مساءً حين دخلت غرفتي، فأطفأت المصابيح تجنباً لعتاب والدتي _ الممزوج بالتوبيخ _ بسبب سهري الطّويل ، فقد فشلت محاولاتي كلّها بإقناعها أنّي أدرس.

استلقيت على سريري مفكّراً بزينب، لا يمكنني أن أتخيّل حياتي دونها ، ولا أعلم كيف كنت أعيشها .

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وبينما كنت أتصفح في وسائل التواصل قرأت اقتباسا مضمونه "إنّ الحبيب معطفٌ لشتاء الألم، ودفءٌ لبرده، وربيع ما إن يمر على صحراء القلب يعلن بدء حياة جديدة مزهرة. وهذا ما فعل ربيع زينب بصحرائي.

بعد امتلاك زينب للهاتف، أصبحنا نتراسل كلّ مساء، وحديث العشاق في ذلك الوقت إحساس عذب ممزوج بلحن رومانسيّ يتصارع مع الخجل لإظهار نفسه.

بعد حديث طويل دار بيننا هذه الليلة سألتني ممازحةً: هل تنظر إلى النّساء وتغازلهنّ كما تفعل معي؟

أجبتها: أنا لا أرى غيرك، بالمناسبة :لم أكن أعلم أنّي أدفن شخصاً ثرثاراً في جوفي إلا بعدما أحييته أنتِ، وهذا الشّخص لا يظهر إلّا عندما أكون معكِ، أو أحادثكِ.

ردّت: إذاً لا تحبّ غيري.

قلت لها: يا زينب، هناك أشياء لا تقبل وجود مرادف لها، كالدّين والعشق، الاثنان مقدسان ولا يمكن للإنسان أن يعتنق دينين؛ أو يعشق اثنتين في آنٍ واحد.

سألتني : بماذا تشعر الآن؟

أجبتها: إنّ السّعادة الّتي تغمرني، والدّفء الّذي يسري في جسدي وروحي_ أثناء محادثتكِ _ لا أملك وصفاً يعبر عنهما.

ذو الفقار

بغداد

٢٠٠٨/١/١م

لقد شارفت زوجتي على الولادة، وبدأ المخاض في جسدها، فأسعفتها على الفور إلى مشفى بغداد الوطني، وبعد ساعات أخبرتني الطّبيبة أنّي رُزقتُ بتوأم ذكور.

وزّعت الحلوى على الأطباء والعاملين في المشفى بهذه المناسبة، وعندما سمح لي الطبيب أن أعود بهم إلى المنزل فعلت ذلك على الفور، وفي طريق العودة حصل انفجار هزّ بغداد، فركنّا السيِارة على حافة الطِريق حرصاً من أن يكون هناك تفجير آخر، ورحت أسأل عن المستهدف، قال لي أحد المارة : لا أعلم لكنّهم يقولون أنّ نبيل طبيب الفقراء قد قُتل .

جلست على مقعدي متأمّلاً ما حدث، هذه ليست المرّة الأولى الّتي يُقتَل فيها طبيب، حروبٌ عديدة نخوضها كلّ يوم بين نفسيّة،

ومعنويّة، وصراعات طائفيّة متأزّمة، وغير هذا كلّه استلام أمريكا لأقلام الدّولة وتسييرها على حسب أهواءها.

كلّما خمدت نيران الحرب من جانب، اشتعلت في جانب آخر، ولم يعد بالإمكان السّيطرة على الحريق، فآه وألف آه على بغداد الّتي لا يمرّ يوم دون تشييع جنازة فيها، وما يخيفني أنّ معظم الجنازات لذوي الكفاءات والخبرات العالية، والسّؤال: لماذا يريدون أن يطفئوا شموع بغداد، ويكسروا أقلامها ؟!

هل يريدون للأجيال القادمة أن يكسوها الجهل؟!

لا أعلم، فهناك شيء خفيّ وخطير يحاكُ خلف الكواليس.

وصلنا المنزل فقالت لي أمي : ماذا ستسمي الأولاد؟

أجبتها : عباس ورعد، فقالت: نِعمَ ما ستفعله يا بني ، اتصل بعمّك رعد وأخبره.

نفذت ما طلبت منّي والدتي على الفور، فهنأني بقدوم ولديّ، لكن كان صوته يوحي لي بمشاعر ممزوجة من الحزن والفرح في آن واحد، وعندما سألته عن السّبب أجابني: ليتني كنت في بغداد.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

زينب

دمشق

٢٠٠٨/١/١٠م.

بعد انتهائي من تنظيف المطبخ ظُهر اليوم بدأتُ بالاستحمام، وعندما انتهيت لففت شعري على هيئة كعكة، ووضعت المكياج بعد أن ارتديت فستاناً دمشقياً أحمر ومخطِطاً الأسود؛ اشتراه لي أبي بمناسبة افتتاح المكتبة، ثمّ التقطتُ صورة لي وأرسلتها لمحمد بناءً على طلبه، فردّ عليها : زينب، لم يعد بمقدوري أن أصبر، أريد أن التقي بكِ مهما كلفني الثمن.

قلت: إنّه أمر مستحيل يا محمد، لكن سآتي مع أبي وأمي مساء اليوم إلى منزلكم، بإمكانك أن تراني هناك.

محمد: وعمر هل سيأتي معكم؟

قلت: لا، سيبقى في المكتبة.

محمد: إذاً هذا هو يوم المنى، لا تأتي مع والديك.

رددتُ متعجّبةً: لماذا؟!

محمد: سيكون والديك في منزلنا، وعمر في المكتبة، وستبقين بمفردك، حينها سآتي لألقاكِ.

أنا: مستحيل، هل جننت يا محمد؟

محمد: زينب أرجوكِ، هذه فرصتنا الوحيدة، أريد لقاءك.

قلت: لا، أنت تريدني أن أُذبح، ماذا لو علم أبي، أو أخي؟

محمد: وكيف سيعلمان! أخوك لا يترك المكتبة، ووالديكِ لن يبرحوا منزلنا قبل العاشرة مساءً.

قلت: ماذا ستفعل لو التقينا ؟

محمد: سأعانقكِ كما تعانق الأمّ ولدها العائد من السّفر، وسأروي عينيَّ بالنّظر إليكِ، وسأرتشق رحيق ثغرك متجاوزاً قوانين الهدوء، وسأشير بيدي إلى شقّ نهديكِ قائلاً: نظّمي دقات قلبي المتسارعة هنا.

ارتسمَتْ علامات الخجل على ملامحي وقلت له: إذاً لن نلتقي.

محمد: إن كنتِ ترأفين بحال عاشقكِ فاسمحي لي أن ألتقي بك.

أنا: لا يا محمد ، أنت لا تعرف عاداتنا وتقاليدنا، ولو كنت تعرفها لما طلبت منّي ذلك.

أوحى محمد لي بزعله ثم أقفل هاتفه.

فكّرت بما دار بيننا، وبعد حديث طويل مع نفسي وافقت على طلبه بشرط واحد، ألا يلمسني أبداً.

حلّ المساء فقالت لي والدتي: هيّئي نفسك للذّهاب معنا.

قلت لها: لا أستطيع، أشعرُ بتوعك بسيط في جسدي، اذهبوا أنتم، وأنا سأخلد للنوم.

والدتي: حسناً كما تريدين، انتبهي لنفسك.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وبعد ذهابهم بربع ساعة أرسلُ رسالةً نصيّة لمحمد محتواها: تعال أنا بانتظارك.

طُرق الباب، فذهبتُ مسرعةً لفتحه، ولما رآني محمد عانقني بشدّة بعد أن أغلقت الباب، وحملني إلى جانب النافورة، ثمّ وضعني على الكرسيٍ.

قلت له: يا مجنون ماذا فعلت، ألم نتفق أن تلتزم الهدوء؟

قال: الهمجيّة قبيحةٌ في كلّ شيء إلّا في الحبّ فهي مستحبّة، صدقيني لم أستطع منع نفسي من عناقك.

قلت: محمد، إنّك تعزف على الوتر الحسّاس في قلبي.

جلس محمد على الكرسيّ المقابل لي، ثمّ أخرج طوقاً من جيبه وتقدّم نحوي.

وقف أمامي وأحنى جسده قليلاً، وبدأ بلفّ الطوق حول عنقي، شعرتُ بأطراف يديه وهي تلامس جسدي، وأحسستُ برعشةٍ تسري في صدري، فنهضتُ وعانقتهُ بكلّ ما أوتيتُ من حبٍّ ، وبينما كان بين ذراعيَّ سمعتُ صوتاً من خلفي " يا الله"، التفتتُ ورائي وإذا هو أخي عمر يفلتُ أزرار قميصه العلوية ويظهر من أنفاسه المتسارعة أنّه يكاد يختنق.

هرب محمد من بين ذراعيّ بعد أن أرخيتهما عنه، وخرج من المنزل، حاول عمر إمساكه لكنّه فشل، وأمّا أنا فوقع مغشيّاً عليّ.

محمد

دمشق

٢٠٠٨/١/١٠م.

الرّحمة يا إلهي ، ما كان ينبغي أن أفعل ما فعلت.

في هذا اللّيل المخيف أجوب شوارع دمشق متمايلاً يميناً ويساراً كالسّكارى، ولا أعلم أين سأذهب!

وصلتُ دوار ساعة المدينة، وجلستُ على الرّصيف، التفتت حولي، كانت عقارب السّاعة المعلّقة على البرج تشير إلى الحادية عشرة ونصف مساءً.

بعد صراعٍ بين الأفكار الإيجابيّة والسلبيّة للسّيطرة على عقلي انتصرت السّلبيّة، ورفعت رايتها، وكان للّيل دور كبير في دعمها .

ما أخون الليل! يقف معك إن كنت سعيداً، وضدّكَ إن حلت بك مشكلة.

" زينب ستنتحر، أو سيقتلها أبوها وأخوها، إنّها النهاية يا محمد، فشدّ رحالك إلى خارج دمشق، لأن أباك لن يغفر خطيئتك " هذا ما أملاه عليّ قلبي، فانهالت الدمعات من عينيّ وحدثت نفسي،

وسألتها : هل لأجل لحظة لقاء عصفورين عاشقين يُقتل أحدهما، ويُجهل مصير الآخر؟

سحبتُ نفساً عميقاً واستعنت بعقلي، فطلب منّي أن أتريّث قليلاً.

أصبح داخلي منطقة منكوبة بفعل الصّراعات النّاجمة عن التناقضات بين قلبي وقلبي، وعقلي وعقلي، وقلبي وعقلي، ولأوّل مرّة أشعر أنّ هذه الأرض أضيق من ثقب إبرة.

وبينما كنت شارداً ارتسمت صورة خالد في ذاكرتي، فمددت يدي إلى جيبي وأخرجتُ هاتفي وأغلقته لئلّا يتّصل أحد بي، ثمّ قصدتُ خالد آملاً أن يستضيفني هذه الأيّام .

طرقتُ الباب

خالد: تفضل.

بعد أن جلستُ ظهرت آثار البكاء على عيني، فسألني خالد: ما بك؟

قلت له: أتسمح لي أن أنام عندك بضع ليالٍ؟

قال: المنزل منزلك، لكن أخبرني ما الّذي جرى معك، هل تخاصمت مع أبيك؟

قلت بغصّة: لقد فعلت فعلة تقلب حياتي رأساً على عقب.

قال متعجباً: وما هذه الفعلة؟!

قلت: سأبوح لك بسرّي علّك تخفف عنّي ، ثمّ رحت أحكي له عن حبّي لزينب، ولقائي بها، وكلامي معها، وبعد أن أنهيت حديثي سألته: ماذا تنصحني أن أفعل؟

قال : صحيح أنّها مشكلة كبيرة، لكنّها لا تستحقّ كلّ هذا الخوف يا محمد، " كبرها بتكبر، صغرها بتصغر"

أولاً: زينب لن تنتحر، ولن يذبحها أهلها، فلا يمكن أن تصل قسوتهم إلى هذا الحد، وأمّا والدك سيوبخك ويضربك ثمّ ينسى الأمر أو يتناساه.

قلت: وماذا عن علاقة عمّي رعد بأبي، أخاف أن تتأزّم.

قال: لا تخف، هؤلاء الكبار حكماء، ولا يمكن لهذه الحادثة أن توقع بينهما.

نبيلة

دمشق

٢٠٠٨/١/١٠م.

أصبحت السّاعة الثّانية عشرة بعد منتصف اللّيل، استأذنا بالخروج من منزل مراد، بعد سهرة طويلة مفعمة بالسّرور والمرح، كانت ليلة صافية هادئة، والنِجوم تتلألأ في صفحة السّماء، والقمر معهم، وخيوط رفيعة من السحب، وكلّهم يشكلون أجمل لوحة رُسمت على الإطلاق.

أوصلني رعد إلى باب المنزل، وقال لي: سأذهب إلى المكتبة لأجلب شاحن هاتفي، فقد نسيته هناك.

قلت له: أظنّ أنّ عمر قد أغلقها، وعاد إلى المنزل.

قال: معي نسخة من المفاتيح.

دخلت المنزل، فسمعت صوت نحيب زينب وبكاءها.

صرختُ، زينب، زينب ماذا هناك؟ وتوجهتُ نحو غرفتها، وكلّ ظنّي أنّ المرض قد نال منها، وهي بحاجة إلى الإسعاف .

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

خرج عمر قبل أن أدخل الغرفة، كانت قسمات وجهه متوتّرة، وعيناه تشيان بغضب شديد، فقال لي: أنتم تخرجون للسّهر، وزينب تحوّل المنزل لديسكو، صدّقيني ما أوقفني عن ذبحها سوى انتظار عودة أبي ليشرع لي، وبدأ بالصّراخ أبي، أبي، أين أبي ألم يعُد معكِ؟

توسّعت دائرة عينيّ، وضاق نفسي، فقلت لعمر: كفّ عن الصّراخ، واحكِ لي ما حصل بسرعة.

راح عمر يحكي لي وعندما انتهى قلت له: سنحلّها دون علم والدك.

عمر: لا يا أمي لن أحلها.

قلت: لا تعالج الخطأ بخطأ آخر، وتصبّ الزّيت على النّار، سأعاقبها على طريقتي، والله إن أخبرت أباك ستخسرني، أبوك يحمل هموماً بحجم الجبال فلا تزدها عليه.

عمر: أرجوكِ يا أمي لا تتدخلي.

قلت له: افعل ما تشاء، والله إن حصل لزينب مكروه ستخسرني، قلت لك أنا سأعاقبها.

تركت عمر وذهبت لأرى زينب، دخلت غرفتها، كان صوتها متهشّما كالزّجاج المتناثر شظايا في أرجاء اللّيل، وعيناها

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

مزرقّة، والدّم متناثر في كلّ مكان، وما يزال يخرج من أنفها، وتشتكي من ألمٍ في ظهرها.

عندما رأتني قالت بصوت ممزوج بالخوف والبكاء والترجي، أرجوكِ يا أمي سامحيني ولا تخبري أبي، وراحت تكرّرها عدِة مرات .

كنتُ أعلم أنّ رعد سيعاقبها وسيضربها قليلاً إن علم بذلك، ثمّ سيتناسى الأمر فيما بعد، لكن أظهرتُ للأولاد بأنّ هذا الذّنب يستحقّ الذّبح، ولن يرأف أبوهم بحال من يقترفه، كي لا يتكرّر مثله في المستقبل ، أمّا أنا فلا أريد إخباره خوفاً من أن تتراكم الهموم في قلبه، وتسبب له جلطة تودي بحياته .

ذهبتُ مسرعةً إلى المطبخ، وحملت سكّينة ووضعتها على قلبي، ثمّ ذهبت إلى عمر وقلت له: والله إن أخبرت أباك سأغرس هذه السكينة هنا.

عمر: ابعدي السكينة عنك يا أمي، هذا ليس حلّاً .

تظاهرتُ له بعدم سيطرتي على أعصابي، وقلت بصوت مرتفع قليلاً: لن أبعدها حتى تعدني بعدم إخبار والدك.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أُصيبَ عمر بالذّهول والخوف في آنٍ واحدٍ، وازداد ارتباكه فقال: حسناً يا أمّي أعدك بذلك، لكن ابعديها عنكِ أرجوكِ، أرجوكِ يا أمي، وأشار بيده نحو السكينة.

بعد أن عاهدني طلبت منه أن يتصرّف وكأنّ شيئاً لم يحدث، ثمّ ذهبتُ لغرفة زينب وطلبتُ منها ألّا تخرج من غرفتها _ قدر المستطاع _ إن كان أبوها هنا، وأن تخبره أنّي أنا من فعلت بها ذلك إن رأى ملامحها الحزينة، وعينها المتورّمة، ومن ثمّ خيّم سكون تام على المنزل.

نظفتُ قطرات الدم المتناثرة حول النّافورة، وبدأت أهيّئ نفسي لقدوم رعد، لئلّا يشكّ بحدوث شيء، وكأنّنا ممثّلون نرتب مشهداً خلف الكواليس، ونتدرّب عليه ليظهر حقيقيّاً أمام المشاهدين.

دمشق
١١/١/٢٠٠٨م.

بحزن كبير أنتظر ما سيجري عقب المشكلة الأخيرة، هذه الليلة الأولى التي أغلق هاتفي فيها، وأنام خارج المنزل.
لا أعلم ماذا يضمر والداي لي بسبب ما فعلته، لكن أعلم أنّ ردود فعلهم ستكون قاسية، ليتني ذهبت إلى المنزل ليلة البارحة وأخبرتُ أبي وتحمّلت عقوبته، لأنّها آتية لا مفرّ منها مهما ابتعدت عن المنزل، وفي بعدي هذا جعلت العقوبة عقوبتين على نفسي .
هذا درس جديد يضاف إلى الدروس الّتي علمتني إيّاها الحياة، مواجهة المشكلة الرئيسيّة، والبحث عن حلّ لها يجنبك مشاكل فرعيّة تصنعها بنفسك، وتقع بها خوفاً مما سينتح عن المشكلة الرئيسيّة.
بالرّغم من حزمي عندما اتخذت قراري بشأن الهاتف (ألا أشغله أبداً) فكّرت قليلاً ثمّ أعدتِ النّظر فيه، وجدت أنّه لن

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

يحلّ مشكلتي، فأشعلته، وجدتُ عدّة مكالمات فائتة من أبي وعمّي رعد، فارتجفت قدماي، وأرسلتُ لأبي: أنا موجود في منزل خالد، وأغلقتُ الهاتف مجدداً، ثمّ جلستُ لأتناول الغداء مع خالد.

بعد ساعة سُمِعَ طرق الباب، أخبرني قلبي بأنّه أبي، فتظاهرتُ بالنّوم، وطلبتُ من خالد أن يفتح له، وألّا يحادثه بشأن ما حصل معي البتّ، لعلّ أبي يفرغ غضبه الأكبر وأنا متظاهرٌ بالنّوم .

بالفعل قد صدق قلبي، دخل أبي الغرفة متلهّفاً، وقال: لماذا كان نائماً عندك ولم يذهب إلى المنزل، هل حصل له شيء؟!

لقد اتّصلت به عدّة مرات، وطلبت من رعد أن يتّصل به، كان هاتفه مغلقاً، هل به مكروه، هل قال لك شيئاً؟!

أجابه خالد: واللهِ لا أدري يا عم، أتاني اللّيلة البارحة وأخبرني أنّه سينام عندي، وأنا لم أمانع، ظننتُ أنّ مشكلة عائليّة حصلت بينكم وبينه.

قال أبي : صدّقني_ والله - لم يزعجه أحدٌ على الإطلاق، وأمّه تذرف دموعها منذ الصّباح خوفاً عليه، وأنا أغلقتُ المكتبة للبحث عنه.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

هنا سرت طمأنينة في قلبي، وقلت: هذا يعني أنّ أبي لم يعلم بما حصل لأنّه لا يقسم كاذباً، ووضعتُ احتمالين لذلك الأمر، الأوّل: أنّ عمي رعد علم ولم يخبر أبي، والثّاني: أنّ كليهما لم يعلم بما حصل، وقد أُخفيَت القصّة وانحسرت ضمن زينب وعمر، وأرجو أن يكون الاحتمال الثاني هو الصّحيح.

حادثتُ نفسي بأنّي لن أخبر والدي، وبعد محاولاته لإيقاظي نهضتُ من السّرير، فانهال علي بالأسئلة، ومنها، هل تشاجرت مع والدتك؟

هل حصل معك شيءٌ وتخفيه عنّي، الخ.....؟

كانت علامات القلق تظهر على وجهه، فابتسمتُ محاولاً تغييرها، وقلت: لا يا أبي، لم يحدث شيء، كلّ ما في الأمر أنّي أردتُ أن أعرف، هل ستفتقدونني أم لا؟

قال: ألهذا السبب أجلستنا على الجمر، ما رأيك أن أخاصمك على ما فعلته؟!

ارتسمت ابتسامة خبث على وجه خالد، وكأنّه يقول لي: " الله نفدك"

قبّلت يد والدي وقلت له: إنّها المرّة الأولى والأخيرة، أعدك بذلك.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قال: هيّئ نفسك لتعود معي، ثمّ أخرج هاتفه واتّصل بعمّي رعد، وقال له: لقد وجدناه نائماً في منزل زميله.

أعاد الهاتف إلى جيبه، فسألته_ متجاهلاً معرفتي بالمُتصلِ به _ من هذا؟

أجاب: إنّه عمّك رعد، خرج من سهرتنا وبعد قليل أعلمته بأنّك مفقود، فبدأ بالبحث عنك معي ومع أخيك ، وطلب منّي إخباره عندما أجدك، وها أنا قد نفذت طلبه، ثمّ أردف قائلاً، ما أعظمه من رجل، تصوّر أنّه لم يذهب إلى وظيفته من أجل البحث عنك.

عادت الحياة لتسري في عروقي، بعد أن فقدت الأمل منها، فغسلت وجهي، وعدت مع أبي، وفي درب العودة لم تشغلني أيّ لحظة عن التّفكير بما حصل بزينب.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

زينب

دمشق

٢٠٠٨/١/١٣م.

أصبحت نافورة المنزل شبحاً مخيفاً، وآثار الخرطوم الأحمر ما زالت على جسدي .

كلما رأيتُ عمر أرى التتار وفرعون في وجهه بعد ما فعله بي، كما أنّي غير راضية عن نفسي بسبب الذّنب الّذي اقترفته، وأحمدُ ربّي أنّ أبي لم يعلم بما حصل ، وآمل أن يبقى كذلك.

لا أعلم لِمَ أقدمت على فعل كهذا، كأنني _ حينها _ شُطرت إلى نصفين، الأوّل يقوده العقل الرافض، والثّاني يقوده القلب المؤيّد، فانتصر القلب وحصل ما حصل.

نظرتُ إلى السّاعة، إنّها التاسعة صباحاً، جلستُ قليلاً على الأريكة في باحة المنزل، ونظرتُ إلى وجهي في مرآة صغيرة، ما زالت عيني متورّمة، والعين الثّانية مصبوغ بياضها باللّون

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

الأحمر، وشعري بحاجة إلى تسريح؛ كان وجهي مخيفاً جداً.

نهضتُ وقطفتُ وردةً من الورود المزروعة في حوض المنزل، ثم بدأتُ أطوفُ حول النّافورة، وفي كلّ خطوة أمزّق جنحاً من الوردة، وأقول سنعود، وفي الجنح الّذي يليه أقول: لن نعود.

كان كلّ شيء حولي جماداً (السّماء ـ الماء ـ الجدران ـ الأريكة) لكنّهم يتحدّثون بطريقة ما ويشاركوني حزني؛ حتّى الوردة ضحت برونقها من أجلي.

شاهدتني أمي فقالت: ،سنعود، لن نعود، ما هذا الّذي تقولينه، أجننتِ يازينب؟!

قلت: أخبرونا يا أمّي أنّ غصّة الماء هي أصعب الغصّات الّتي يواجهها الإنسان، وهذا غير صحيح، هناك غصّة تقف في الحنجرة لا نستطيع ابتلاعها، أو إخراجها وهذه هي الأصعب، أنا متعبة .

نظرتْ أمّي لي بدهشة، وقالت: هوّني عليكِ يا حبيبتي، ولا تحمّلي نفسك مالا طاقة لك بحمله، ابتسمي سأعيد إليك الهاتف بعد أن أنتهي من عمل المنزل، وسآخذك إلى الحديقة وسنتجول في دمشق.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت: أمّا عن الهاتف فأنتِ مخيّرة، وأمّا عن الحديقة فلا أظنّ أنّها ستشفي وجعي، ونظرتُ إلى عينيها قليلاً وتابعتُ قولي: في دمشق كلّ شيءٍ جميل، ولكن هذا الجمال لا يروي ظمأ قلبي، أريدُ بغداد، وعانقتها وأنا أردّد أعيدوني إلى بغداد.

قالت أمّي: يا بنتي، إنّ الألم وحشٌ مخيفٌ، فحين يريد أن يفترس إنساناً يستحضر كلّ ما يمكن أن يساعده، فلا تسمحي له بذلك، ولا تجعلي حزنك وألمك بسبب ما حصل يحيي آلامك المدفونة، كلّنا نريد بغداد، لكن قدّر الله علينا أن نفارقها.

جلستُ على ضفة النافورة، ووضعت كفّي في قلبها وقلت: علّمونا في المدارس أنّ معظم الأمراض المزمنة لها نوبات في جسد الإنسان، وفي كلّ نوبة يصارع الإنسان من أجل البقاء، لكنّهم لم يعلمونا أنّ الحنين مرضٌ مزمن يصيبُ الرّوح، وعلاجه لقاء ما نحنُّ له، فما العلاج إن كان اللّقاء مستحيلاً؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ ميسون

١٥/١/٢٠٠٨م.

كان يوماً معتدلاً، استيقظت صباحاً، وأعددت طعام الفطور لزوجي وأولادي، وراقبت مراد حتّى ذهب إلى عمله في المكتبة، وبعد أن انتهيت من غسل الأواني، جلستُ أفكر بطبق الغداء لهذا اليوم، فقررت أن أستشير محمد وأطبخ له ما يحبه، لكن عندما ذهبتُ إليه كان منعزلاً بنفسه، فقال لي: لا أرغب بشيء، اطبخي ما تريدين.

لم يكن محمد حزيناً ومكتئباً لهذا الحد قبل أن ينام ليلة خارج المنزل، حادثت نفسي حوله، كان الأجدر به أن يكون في أسعد اللّحظات، فثلاثة أيّام تفصله عن حفل تخرجه من كليّة الآداب في جامعة دمشق .

لا أعلم سبب تمكّن هذا الحزن المفاجئ منه، لكنّي أرجح أنّه تخاصم مع زينب لسببين، الأول : لا يمكن لشيء غير خصام

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

الحبيب أن يجعل الإنسان كئيباً في مرحلة العشق، والثّاني: رقم زينب مغلق على الواتساب منذ خمسة أيّام.

ذهبتُ لأزور نبيلة في منزلها، وعندما وصلت فتحت لي الباب، وبينما كنا متجهتين _ نحو غرفة الضيوف _ وجدت عمر جالساً حول النافورة، فقلت له : يبدو أنك تحب النافورة، كيف حالك ياعمر؟ وأكملنا مسيرنا نحو الغرفة.

لم أسمع ردّ السّلام منه، سألتُ نبيلة عن السّبب بعد أن دخلنا الغرفة، فأجابت: لقد ردّ، لكنّك لم تسمعيه.

بدأنا نتحدث عن مسلسل يتمّ عرضه في هذه الأيّام على التلفاز، تدور أحداثه حول العراق بعد عام ١٩٩٠ م. وبعد مرور أكثر من عشر دقائق استأذنتني بالخروج، ثمّ عادت وقد أحضرت معها القهوة.

تعجبت كثيراً، لماذا لم تطلب من زينب إحضارها، فسألتها: أين زينب، لقد وجدت رقمها مغلقاً منذ خمسة أيّام، والآن على غير عادتها لِمَ لم تحضر القهوة، هل بها مكروه لا قدّر الله؟!

قالت: لا تهتمي، إنّها مريضة.

قلت : مريضة؟! دعينا نذهب إلى غرفتها إذاً.

ارتبكت نبيلة ثمّ قالت : لا، لا هي نائمة الآن.

سرحت في تفكيري قليلا، أشعر أنّ شيئاً قد حدث، في الأيّام الأخيرة، محمد ينام خارج المنزل دون علمنا، وعمر لم يرد السّلام عليّ، وزينب لم تخرج لاستقبالي، رفعت رأسي ونظرت إلى نبيلة قائلة: هناك شيء قد حدث، وأتوسّل إليك أن تحكيه لي، أنا أشكّ في أمرٍ ما، وأرجو ألّا يكون شكّي حقيقة.

ابتسمت نبيلة نصف ابتسامة، وكأنّها تشير إلى صحة كلامي وقالت: دعك من هذا، كيف حال زوجك وأولادك (محمد وأحمد).

قلت لها: لن أجيب بشيء قبل أن تتكلّمي عمّا حصل.

راحت نبيلة تحكي لي ما حصل بين زينب ومحمد وعندما انتهت ملتُ على جانبي، كأنّ جزءاً منّي ينهار وآخر يقاوم بسبب ما سمعت، فقلت لها: هذا ما كنت أخشاه، لقد رأيت محمد يهدي وردة لزينب ذات يوم، لكنّي لم أشأ أن أتدخّل بينهما لأنّهما سيظنّان أنّي أكرههما، فكما تعلمين العشاق يستعدون كلّ من يقف في طريق عشقهم، لكن على أيّ حال

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نحن نساء مربيات، ونتفهم ما حصل، احمدي الله أن أخاها، وأباها لم يعلما.

أطلقت تنهيدة من عمق صدرها وقالت: هنا تكمن المشكلة يا أم محمد، وردّدتها مرّة ثانية.

دُهشت مما قالت وسألتها: ما الّذي تقصدينه بكلامك؟

أجابت: لقد رآها عمر، وضربها ضرباً مبرحاً، ومنذ ذلك اليوم، تشتكي من ألم في ظهرها، ودخلَتْ في حالة اكتئاب، لكنّي استطعتُ منع عمر من إخبار أبيه كي لا تتأزّم الأمور، وعندما رآها أبوها أخبرته أنّي أنا من ضربها، بسبب إهمالها لواجباتها المنزلية.

قلت: خذيني إلى غرفة زينب الآن.

قالت: لا أستطيع، عمر يراقب وجودك هنا، فإن دخلت إلى غرفة زينب سيقوم بضربها بعد ذهابك .

قلت: الآن علمت لِمَ نام محمد خارج المنزل في تلك اللّيلة، سأطلب من أبيه أن يعاقبه أشدّ عقوبة على ما اقترفت يداه.

ردّت نبيلة: لا تختلفين كثيرا عن عمر في هذا الرأي، ما الّذي ستفيده العقوبة الآن؟ نحن نريد حلّاً، وتابعت كلامها: مشكلتنا يا ميسون حين تحصل مشكلة نفكّر بمعاقبةٍ من سبّبها قبل أن

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نفكر بحلّ لها، لو سُهِل أمر العشاق عن طريق مساعدتهم لاجتازوا كلّ فكرٍ سيء، نحن بحاجة إلى الحلّ أكثر من العقوبة، و أنا أثق أن محمد وزينب في أشدّ لحظات النّدم.

قاطعتها قائلةً: ذلك صحيح، فمحمد يرثى لحاله هذه الأيّام.

قالت: لقد أخبرتِني أنّكِ رأيتِ محمد يهدي وردة لزينب، أليس كذلك؟

أجبتها: نعم.

قالت: كان عليكِ أن تخبري محمد أنّكِ رأيتهِ، وترشديه بدلاً من تجاهلك للأمر، وتخبريني لأراقب زينب وأضع حدّاً لتصرّفاتها.

قلت: لقد حصل ما حصل، ما الحلّ برأيك؟

قالت: أرى أنّ الخطبة هي الحلّ الوحيد يا ميسون.

سألتُ متعجبةً: أبهذه البساطة، ماذا عن رعد ومراد، هل سيوافقان أم لا؟!

قالت: حتّى وإن لم تتمّ الخطبة، على الأقل أستطيع أن أخفّف حقد عمر على أخته، صدقيني لا أنام اللّيل خوفاً من أن ينسلّ إلى غرفتها، ويقتلها بطريقة ما، لقد كاد أن يذبحها حين رآها مع محمد .

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت لها: بقي ثلاثة أيّام على تخرّج محمد من جامعته، سنكون في اليوم الرابع هنا لنخطب زينب، أعدك بذلك، فأنا أحبّ زينب وحريصة على وجود حلّ يزيل عنها غمامة همها وحزنها، والآن سأعود إلى منزلي.

قالت: لي طلب أخير منكِ، لا تخبري أحداً، لا زوجك ولا حتّى أولادك، كما قلت لك نحن بحاجة إلى حلّ.

وعدتها بتنفيذ طلبها، وخرجت مذهولة ممّا قد حصل.

محمد

دمشق

٢٠٠٨/١/١٨م.

أصبح الحلم حقيقة، لكن بالوقت غير المناسب، لقد لبست عباءة التخرج بوجود والديّ ومعمليي، وزملائي، ووقفت خلف المنصّة لألقي كلمة بمناسبة تخرجي.

بعد أن انتهيت تمّ تكريمي وعلقوا الشهادة في صدري كالطّوق، فصفّق الجميع لي بحرارة عالية وعانقني والداي وأخي، كانت فرحتهم تضاهي فرحتي بنفسي.

قال أبي: سأقيم لك أجمل احتفال مساء هذا اليوم ونستضيف رفاقك، و رعد وعائلته.

تلاشت ابتسامتي وغطّيت في شرود عميق إن حضر عمي رعد وعائلته كيف سأستطيع النّظر إليهم بعد الذّنب الّذي اقترفته في عقر منزلهم، وهل ستحضر زينب معهم، آه يا زينب، كلّ يوم يمرّ في غيابك يعتبر عاماً من الحزن.

سألتني أنّي :ما بك؟ " وين شارد، النا فترة عم نحاكيك"

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجبت: فرح كهذا يستحقّ الشّرود، دعونا نذهب إلى المنزل لنهيّئ الحفل، ونشتري الحلوى.

اتفقنا أن نذهب أنا وأمي لشراء الحلوى، وأن يذهب والدي وأحمد لإبلاغ أصدقائي الّذين أخبرتهما عنهم، وعمّي رعد وعائلته، وبينما كنّا في الطّريق، كانت أمّي تمشي ورائي على بعد نصف متر، قالت لي: لمَ هذا الحزن؟

أجبتها: لا تعذليني يا أمّي، اسألي وسادتي وستحكي لكِ قصّة تُبكي السماء من حزنها.

ردّت أمّي : سأسأل زينب، ربّما تعرف أكثر.

توقفت عن المشي والتفت نحوها قائلاً: وما علاقة زينب؟!

أجابت: أتظنّ أنّ الأمّ لا تعلم ما يدور في رأس ابنها؟ لقد أُخبرتُ بكل شيء.

أصابتني الدّهشة، ولم أشأ الإفصاح خوفاً من أنّ أمّي لا تعلم شيئاً، وتستجوبني بطريقتها، فقلت لها: تتوهّمين يا أَمّي.

قاطعتني وقالت: إنّ ما حصل معك ومع زينب يوم أن نمت خارج المنزل يستحقّ العقوبة لكليكما، لكنّنا فضلنا الحلّ على العقوبة.

صمتُ قليلاً، إذا أمّي جادة فيما قالت.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت لها: بما أنّكِ علمتِ أخبريني ما الحلّ، وهل أبي يعلم أم لا؟ أجيبي بكلّ صراحة.

أجابت: أبوك لا يعلم، والحلّ هو مفاجأة تنتظرك يوم غد، وستزيل عنك هذا الحزن .

حاولت تبرير فعلي بأنّي لم أكن واعياً فقاطعتني مجدداً وقالت: لا أطلب منك التّبرير، أنا لست غاضبة، ولن أخبر أحداً، أتكلّم معك كصديق مقرّب، المهم ألا تلتقِ بعمر.

قلت: حسناً كما تريدين، لكن ما الحلّ؟

أجابت :سنتقدم لخطبتها لك يوم غد.

قلت: أبهذه السّرعة، ماذا إن لم يوافق أبي؟

قالت: لا عليك، سيوافق لسببين، الأوّل: لأنّه ينتظر هذه الفرحة، والثّاني: لأنّه لا يرفض لي طلباً.

سألتها: من أخبرك بما حصل؟

أجابت: نبيلة، لقد زرتها منذ ثلاثة أيّام، واتفقنا على أن نقتلع المشكلة من جذورها.

عدت وسألتها مجدّداً، لكن بلهفة: كيف حال زينب، قلبي جمر يحرقني على غيابها.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قالت: اطمئن، هي بخير، لكن أمها منعتها من استخدام الهاتف لكي تشعر بذنبها، ولهذا السّبب هاتفها مغلق.

قلت: وعمر ماذا فعل بها؟

قالت: لقد تدخّلت نبيلة بينهما في الوقت المناسب، فلم يمسسها سوءٌ منه.

كان قلبي كتلة من الجمر في تلك الأثناء، وكلام أمي كالماء، فشعرتُ براحةٍ بعد أن غابت عنّي منذ أيّام.

نظرت إلى أمّي قائلاً: الآن أستطيع أن أفرح، هيا بنا لنشتري الحلوى.

ردّت ضاحكة: وسنضيف إلى قائمة مشترياتنا طقم رسميّ لترتديه غداً في يوم خطبتك.

رعد

دمشق

٢٠٠٨/١/١٩م.

بينما كنت جالساً وراء الطّاولة في المكتبة _ أكتب استنتاجاً لمقارنتي بين سقوطي بغداد _ دخل مراد وبدأ يتجوّل داخل المكتبة بعد أن ألقى السّلام، وكأنّه يخفي حديثاً خلف أفعاله، ويتردد في إخراجه.

سألته: هل تريد أن تقول شيئاً؟

أجاب: لا، أبداً، لكن سنزوركم _ أنا وعائلتي _ في السّابعة مساءً.

قلت: " تشرفوننا بزيارتكم" وأغلقت الدفتر ووضعته على الرف، فنظرَ نحوه قائلاً: منذ أيّام رأيته هنا، فانتابتني رغبة في قراءة محتواه، لكن حرصاً على خصوصيتك كنت أنتظر قدومك لاستئذانك، وعند قدومك أنسى، فهل تسمح لي بقراءته بعد أن تعطيني لمحة عنه؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجبت: بكلّ سرور، لقد أبحرت في كتب التاريخ لاستنتاج مقارنة بين سقوطي بغداد، ومنذ أن توصلت إلى نتيجة بدأت أدوّن استنتاجي، وهذا محتواه، ثمّ وقفت وأحضرت كتاباً يتحدّث عن بغداد بعد عام ٢٠٠٣م، ووضعته أمام مراد وقلت: أظنّ أنّ التّاريخ كاذبٌ، لأنّي هذا الكتاب يتحدث عن سقوط بغداد في عام ٢٠٠٣ م ، وقد أُصدر منذ عام، قرأته فوجدته مليئاً بالتزوير والخداع، والمصيبة أنّه حظي باهتمام شديد، وغير العراقيين سيصدّقونه، والأجيال القادمة كذلك.

ردّ مراد قائلاً: لهذا السبب لا أحبذ كتب التاريخ، وأرى ألّا نعطيها فوق ما تستحقّه من الاهتمام، فهناك الكثير من الكتب العلميّة والثقافيّة تستحقّ أن توضع حجر أساس في منازلنا، لكن للأسف مازلنا نختلف ونتشاجر على التّاريخ، وبعد حديث قصير غادر المكتبة، فاتّصلت بعمر ليحلّ مكاني كي أعود إلى المنزل وأتهيّأ لاستقبال مراد وعائلته.

في طريق العودة بدأت الأفكار تراودني بسبب زيارة مراد، لأنّها ليست كسابقتها، ولعثمته في الكلام تثبت ذلك، وغير هذا كلّه كنا في منزلهم اللّيلة البارحة بمناسبة تخرّج محمد،

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

بقيت أفكر إلى أن وصلت المنزل، فأخبرت نبيلة أن تكون على استعداد لاستقبالهم، وجلست أشاهد التلفاز حتى أصبحت السّاعة السّابعة مساءً قُرع الجرس تزامناً مع صوت مراد (يا أبا عمر، يا أبا عمر) فخرجت لاستقبالهم، ثمّ تبعتني نبيلة وزينب، لكني دهشت عندما رأيت محمد يلبس هنداماً رسميّاً، وعلمتُ سرّ تلعثم مراد فقد أخبرني جاري أن الدمشقيّ لا يتقدّم لخطبة فتاة إلا بهندامٍ رسميٍّ، وهذه عادة متوارثة في دمشق.

دخلنا غرفة الضيوف، وبعد حديث معتاد بين النّساء عن الاشتياق والمودّة دخلت زينب حاملة لأكواب القهوة، وبدأت تقدّمها وعندما وصلت أمامي انحنت لتقدم لي القهوة فتدلى طوق من رقبتها يحمل حرفين الأوّل حرف الميم والثّاني حرف الزّاي، ولم أجد لذلك الحرفين سوى تفسير وحيد، زينب ومحمد.

تظاهرت بأنّي لم أر شيئاً، وأكملت حديثي مع الضيوف، كان محمد يجلس بجانب أبيه والخجل يعتريه، وأظنّ أنّه حفظ الرّسم الموجود على فنجان القهوة من كثرة تحديقه بها، بينما

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كانت زينب تجلس مقابل محمد، وابتسامتها الخجولة مرسومة على وجهها، وميسون تحدّق بها.

قال مراد: جئناكم بطلب آملين ألا يرفض.

رددت قائلا: تفضل يا أبا محمد.

مراد: كما تعلمون، لقد تخرّج محمد وسيتوظّف عمّا قريب، وأصبح كفؤاً لحمل المسؤوليّة، ولهذا جئناكم نقصد نسبكم، ونطلب خطبة زينب لا بننا محمد فهل أنتم موافقون؟

ققل: يا مراد، لا أعتبرك إلا شقيقٌ لي، وأشهد أني لن أعطي ابنتي لمن هم أكرم منكم خلقاً ونسباً.

قاطعني مراد: شكراً، شكراً، إذاً هل نقرأ الفاتحة بنية التوفيق؟

قلت: دعنا نتريّث قليلاً، وسأردّ عليك بعد يوم غد.

قال مراد: حسناً، بانتظار ردّك.

بعد أن انصرفوا سألتني نبيلة ما رأيك؟

أجبتها: غير موافق.

نبيلة: لماذا؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت: نحن هنا أشجار جذورها ضعيفة، وستقتلع مع أول هبّة ريح، فلا نعلم بأيّ أرض سنكون بعدها، وزينب ابنتنا الوحيدة لا أريد أن أغرّبها عنا.

نبيلة: لم أسأل زينب عن رأيها، لكن ماذا لو كانت موافقة، هل ستقف في طريقها؟!

قلت: نعم، سأقف لأنّها لا تعلم أين تكمن سعادتها، فما زالت مراهقة، والمراهقون يقدمون على الأمر دون تفكير.

نبيلة: مادمت متمسّكاً برأيك، لِمَ لم تخبر مراد برفضك؟!

قلت: أخاف أن أخسره، لقد أعطيته المهلة كي أفكّر بردّ منطقيّ يحافظ على الود بيني وبينه، ثمّ صمتُ قليلاً وتابعت: يا نبيلة، حين نجد شخصاً طيّباً يجب أن نحافظ عليه، ونتمسّك به بكلّ ما أوتينا، ولا نسمح له بالرّحيل ، لأنّه إن رحل لن يعود، والأشخاص الطيبون نادرون.

مراد

دمشق

٢٠٠٨/١/٢١م.

كانت الطائرات تقصف دمشق، وصوت الرّصاص يهيمن على المكان، تزامناً مع ذلك دخل جندي ملثّم إلى منزلي وصوّب بندقيّته نحوي.

مراد، مراد، انهض، أظنّ أنّك رأيت كابوساً مخيفاً، هذا ما قالته ميسون، ثمّ سقتني كوبا من الماء.

سألتها: كم السّاعة ؟

أجابت : السّابعة ونصف.

قصصت رؤيتي عليها، ثمّ طلبت منها تحضير الفطور وإيقاظ الأولاد، وبعد أن جلسنا حول المائدة، سألني محمد: هل ردّ عمّي رعد لك الجواب؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجابته ميسون ضاحكة : " لسا الدنيا الصبح، بكون عمك رعد ما فاق من النوم"

انتهيت من تناول الفطور، وذهبت لفتح المكتبة، كان للصّباح طعم خاص فيها، وأشعر أن موقعها يطل على الجنة، لا على مفرق من الطرق .

كانت بعض السيدات الدمشقيات يأتينّ كلّ صباح، قبل ذهابهن إلى عملهن ليستعرن كتباً، أو يشتروهنّ، ومنهنّ من تستضيفني في المقهى المجاور على كوب قهوة، وحين أحكي لرعد ما يحصل يقول لي ممازحاً: احذر أن تدري ميسون، فأنا لا أريد خسارة صديق مثلك.

انقضى وقت عملي لهذا اليوم ، وأتى رعد ليحل مكاني، سألته عن رده حول موضوع الخطبة ، فقال لي: أنتظرك في مقهى جبل قاسيون؛ السّاعة السّابعة مساءً، وسنتكلم حول هذا الموضوع.

عدت إلى منزلي وبدأتُ أصوغ مشاهداً في مخيلتي، وأتدرب عليها للردّ على رعد في حالة موافقته أو رفضه،

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وعندما حان الموعد المحدّد للذّهاب انطلقت إلى المقهى، ولمّا وصلت وجدت رعد بانتظاري على الطّاولة الّتي اعتدنا الجلوس عليها.

سألني ماذا تشرب؟

أجبته :" قهوة سادة"

طلب من النادل كوبين من القهوة، وبدأ يحدثني عن سلبيات زواج الغرباء، ونتائجه الفاشلة.

قال: نهاية المغترب العودة إلى بلاده، وأنا أعلم أن ابنتي لا يمكنها البقاء في مكان، وأهلها وذووها في مكان آخر، يجب أن نبتعد عن العاطفة حين نفكر بالأمور المصيريّة.

أنا: أفهم أنك لست موافقاً.

رعد : أرجو أن تفهمني دون زعل.

شعرت بإحراج شديد بسبب رفضه لطلبي، فنهضت قاصدًا مغادرة المجلس، وقلت له: حسنا كما تشاء.

رعد: ارجوك افهمني.

تظاهرت أنّي لم أسمعه وأكملت خروجي فصرخ قائلاً: سأفرغ لك المنزل، وأنسحب من المكتبة.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

التفت نحوه وطلبت منه ألّا يُشرك المنزل والعمل في هذه الأشياء فردّ عليّ: لماذا أدخلت الخصام إذاً؟!

قلت له: أشعر بالإرهاق قليلاً، سنتكلم فيما بعد ، وعدت إلى المنزل.

وضعت كرسيّاً على الشرفة ، وبدأت أفكر، هل هو محقّ فيما قاله، أم أنّه اختلق عذراً كي لا يزوج ابنته لمحمد!

ربّما كان محقّاً فأختي تزوّجت فلسطينيّاً وسافرت معه إلى تركيا، وكلّما اتصلتُ بها تذرف دموعها شوقاً للقائنا.

يجب ألّا أخاصم رعد لمعزّته في قلبي، ولشعوره بأنّه ضعيف وبإمكاني إخراجه من منزل والدي إن لم تتمّ هذه الخطبة، وهذا الأمر لا أقبله البتّة، تبعتني ميسون وسألتني عن ردّ رعد، فأخبرتها أن تبحث عن فتاة غير زينب، لأنّ أباها لم يوافق.

كان محمد يتنصّت لحديثنا من وراء النافذة فخرج إلينا_ وعلامات الغضب ظاهرة على ملامحه _ قائلاً: لا تتعبي نفسك يا أمّي، لن أتزوّج غير زينب .

رددتُ ضاحكاً على كلامه: أبهذه السّرعة أصبحت عاشقاً لها؟!

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

محمد: أخبر رعد أنّي لن أسمح لأيّ شاب بالزّواج منها مادامت في دمشق.

أنا: محمد، أتفهمك في هذه اللّحظات لكن لا يجدر أن تقول كلاماً كهذا ، أرجو ألا تطلقه مجدداً كي لا أغضب منك، ابنته وهو حرّ باختيار زوج مناسب لها .

ردّ محمد: لا ليس حراً، لماذا لا يحترم رأي زينب؟!

هذا هو مجتمعنا الشرقيّ، يحبّ التّحكم بحياة الآخرين بذريعةِ أنّه يرى مستقبلهم ، ويظنّ أنّه على صواب.

لم أستطع منع نفسي من الضحك، فنظرت نحو ميسون وقلت لها: بيومين عشقها وهام بها، وسيحارب من أجلها، وأصبح يطالب بحقوقها، والتفتُ نحو وطلبت منه أن يذهب إلى غرفته.

بعد ذهابه أخبرتني ميسون أنّه أحبّها بعد شهور قليلة من دخولها دمشق.

قلت: حاولي إقناعه بالزّواج من فتاة أخرى.

ردت: هذا ليس بالأمر السّهل، أتذكر حين لم توافق أمّي على زواجنا؟! كنتَ تقول لن أتزوج إلّا ميسون، لذلك يجب أن نقيس الأشياء علينا قبل محاولة تطبيقها على الآخر.

مراد: ماذا سنفعل إذا، هل هناك حلّ غيره ؟

ميسون: نعم، سأطلب من نبيلة أن تحاول إقناع زوجها، عله يوافق .

مراد: أيعقل أن يوافق؟!

ميسون: حتماً سيوافق إن كان لديها أسلوب في إقناعه.

محمد

دمشق

٢٠٠٨/١/٢٣م.

استيقظت في الصّباح وتناولت الفطور، ثمّ جلستُ استمع إلى حديث عائلتي الممل، عن الطبخ وفوائد الثّوم الخ....

قلت لهم ممازحاً: ألا يوجد لديكم غير هذه الأحاديث المملّة؟

إنّها تجعلني أشعر بالنّعاس رغم أنّي استيقظت منذ قليل.

قال أبي: وعمّ تريد أن نتكلّم يا أستاذ محمد؟

ردت عليه أمي: أنا سأجيبك، يريد أن نتكلّم عن حدائق بابل، ومتحف بغداد، وشارع المتنبي.

قال أبي ضاحكاً: أصحيح يامحمد؟

ثمّ نظر أخي أحمد نحوي وقال: وكأنّ محمد لم يعشق زينب فقط، بل العراق بأكمله " الله يثبت علينا العقل والدين" .

رددتُ عليه : " اسكت أنت، والله عشنا وشفنا، يلي كنت علمو القراءة والكتابة صار بدو يعلمني العقلانية"

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

واستمر الجدال بيننا حتى أنهاه أبي _ قبل أن يذهب إلى المكتبة _ كي لا يتحوّل إلى شجار.

ذهبت إلى غرفتي، وجلست على سريري بعد أن أخرجت رسائل زينب، وورودها الّتي أعطتني إياها، وبدأت ذاكرتي تستحضر أيّامي الماضية معها.

تلك البغداديّة تربّعت على عرش قلبي، ووضعت ذاكرتي تحت وصايتها؛ لها صورة في هاتفي، أحادثها كلّ ليلة، وأبحر في ملامحها دون كلل و ملل، وما كان يفصلني عن سعادتي أن أيّامي تمرّ دون أن أحدثها، أو أراها.

قرع الباب فخرجت لأفتح، كان صديقي خالد قادماً لزيارتي، وقد استأت، وأشفقت على حاله بسبب سقوطه في السّنة الجامعية الأخيرة من تخرجه، وحمدت الله أنّي لم أتّبع نصائحه أثناء دراستي ، لكن يجب أن أقف بجانبه وأواسيه فله فضلٌ سابق عليّ.

دخلنا غرفة الضيوف وقدمتُ له الشّاي السّاخن، وبعض الموالح، وبعد حديث طويل سألته: ألم تخبرني أنّك تضمن التّخرج هذه السنة، ما الذي حصل؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجاب: كنت أعتقد أنّ المال مصعد نحو أحلامي، لكن للأسف ذلك الشّخص الّذي أخبرني أنّه سيشرف على نتائجي، كان مخادعاً، أخذ المال ثمّ قال لي: لم أستطع فعل ذلك.

قلت: وهل المبلغ الذي دفعته له كبير؟

خالد : نعم، لكن لا يهمني المبلغ، الّذي أحزنني أن والدي كانا ينتظران تخرّجي فخذلتهم.

قلت: أتمنى أن تجتهد في السّنة القادمة، وأن يكون هذا الخداع درساً لك في المستقبل كي لا تعتمد على غيرك في تحقيق أحلامك، لا تيأس ياصديقي، المهم أنّك علمت أين الخطأ، فابحث عن الصّواب.

بعد دخوله منزلنا بساعتين ونصف طلب منّي مرافقته إلى المقهى كي نشرب أركيلة هناك، فأنا لا أشعلها في منزلنا خوفاً من والدي، وعندما انتهينا عاد كلّ واحد منا إلى منزله.

جلست أشاهد التلفاز حتّى أصبحت السّاعة السّابعة مساءً، فتحت هاتفي، فوجدت عدة رسائل على تطبيق الواتساب من زينب، ولما فتحتها وجدت أنّها تخبرني عن حالها، وأنّ أمها وعمر قد أعادوا الهاتف لها بعد أن وعدَت عمر ألّا تتكلّم معي البتّة، ومن ضمن رسائلها :" لم يكن لدي حيلة لأحادثك سوى

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أن أخلف بعهدي، صدقني لو مُزِّقت إرباً لكان حبّك في كلّ إربة.

إنّ أبي لا يتقبّل فكرة زواجي لغير بغداديّ، بذريعةِ أنّي لا أستطيع العيش إلّا بجانبهم، ولمّا أخبرني بذلك أُجهِشَ بالبكاء، فنظرت إلى عينيه، وقرأت ما هو مكتوب فيها، فعلمت أنّه هو الّذي لا يستطيع العيش بدوني.

محمد، أنا على ثقة بأنّه سيوافق ذات يوم، لأنّه يشعر بتأنيب الضّمير، فإن كنتَ تريدني حقاً اصبر حتى يوافق من تلقاء نفسه، وأظنّ أنّ هذا اليوم ليس ببعيد".

رددتُ على رسائلها :

إنّ بيني وبين السّعادة غيابك، فبئسَ الغياب هو، أنا لم أفقد الأمل، ولن أفقده، ومازلت أنتظر موافقة أبيكِ، فلن أوفّر وسيلة في الدّنيا إلّا وسأفعلها من أجل ذلك.

يازينب، إنّ الحواجز الّي تمنع العاشقين من الزواج هي امتحان لمدى حبّهم لبعضهم، والأشياء العظيمة والثمينة تستحقّ الكفاح من أجل الفوز بها، وأنا سأكافح لأفوز بكِ.

بالمناسبة، لقد كنتِ الأجمل حين أتيت مع والديكِ إلى حفل تخرّجي ، آهٍ يازينب، كم تمنيت الاقتراب منكِ، ومعانقتك لكن

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كانت أمّك لا تذرك بمفردك ولو للحظة واحدة، لكن ما واساني هو حديث عيوننا، لقد قالت كلاماً لا نستطيع أن نعبر عنه بألسنتنا.

أريد إخبارك بأمرٍ مهمٍ، سأبدأ بكتابة رواية تحكي عن عشقنا، وحين انتهي منها سأطبعها في مكتبتنا، وسأنشرها في كلّ أرجاء القطر، عنوانها " بغداديّةٌ في دمشق" .

لا أعلم ما السّر الّذي يختبئ في نفسي، إنّها تراودني _ في بعض الأحيان _ أن أخبر النّاس جميعهم بحبّي لكِ، فلذلك انصعت وراءها، وقرّرتُ إخبار النّاس بطريقة أدبي، بعيدة عن الهمجيّة والجنون.

ردت زينب :

العشق كالنّجاح ، فيه من العوائق ما يكفي لمنع الوصول إلى المراد المطلوب، لكن صاحب الإرادة والصّدق لا يأبه لها، أحيّيك ياحبيبي وأشجعك ، وأرجو أن تسمح لي بمشاركتك في روايتك، فلقد كتبت حياتي _ منذ أيامي الأخيرة في بغداد حتى هذا اليوم _ في دفتر، وأظنّ أنّ ذلك سيساعدك كثيراً.

سألتها: وكيف سأحصل عليه؟!

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

زينب: اطلب من خالتي ميسون أن تأتي لزيارتنا، وسأعطيها إياه.

أنا: ماذا لو رآها أهلك؟

زينب: لن يراها سوى أمّي، وهي أصبحت صديقة لي، حتّى أنّني حدّثتها عن حبّنا منذ اللّحظة الأولى، لكنّها اشترطت عليّ ألّا أذهب لزيارتكم إلّا في المناسبات، وألّا ألقاك أبداً.

دمشق.
٢٠٠٨/٢/٢م.

لا يمكن لشيء أن يقف في طريق العاشقين، سيجدون من ثقب الإبرة منفذاً لوصالهم، لذلك وقفت مع زينب كي أرشدها وأوجّهها، وأكون على اطلاع بما يحصل بينها وبين محمد، عقب فشلي بإقناع رعد للموافقة على الخطبة.
بعد أذان العصر بقليل، كان الجوّ غائماً ومحملاً بنسماتٍ باردة، ارتديت معطفي ودخلت الغرفة، وجدت عمر وزينب يشاهدان التلفاز، وبعد جلوسي بقليل بدأ عمر يرينا صوراً لبغداد ومنزلنا.
قالت زينب بعد أن أطلقت تنهيدة من عمق صدرها: إنّ صور ما نحبّ نارّ تلفح أفئدتنا كلّما عُرضت علينا، " عمر، أرسل الصور لي"

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت: اصبري، صحيح أنّ ما فقدناه ثمين، لكن عُوّضنا بما هو أثمن، من كان يتوقّع أن نسكن بمنزل دمشقيّ قديم!

قال عمر: وهل هذا المنزل يُقارن بمنزلنا! والله لو أعطوني دمشق بأسرها مقابل منزلنا لما قبلت.

وبينما كان بتكلم رنّ هاتفه، وإذا بأبيه يتصل به ، ويطلب منه الذّهاب إلى المكتبة من أجل أن يعود ليتناول الطعام.

ذهب عمر وأتى رعد، والفرح يكسو ملامحه بأبهى الحلل، فقال: لدي خبر ثمنه من ذهب.

قلت أنا وزينب بصوت واحد: وما هو؟!

قال: لن أقول لكما قبل أن اتناول الطّعام من يد نبيلة، وأشرب الشّاي من يد زينب الجميلة.

وضعت له الطّعام وبعد أن انتهى استلقى على جانبه، وبدأ بشرب الشّاي وقال : لقد حصل اجتماعاً بين دول عديدة بشأن العراق، انتهت مخرجاته بسحب الأسلحة من كلّ التكتلات، وتسليمها لحكومة موحّدك يختارها الشّعب من السّنة والشّيعة، والأكراد الخ.... وأن تقوم هذه الحكومة بالقضاء على مظاهر التفرقة الدينيّة كاملة.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

اتّسعت دائرة عيني زينب وشهقت قائلةً: هذا يعني أنّنا سنعود إلى بغداد" والله خبر وزنه ذهب"

أشفقت على حالهما، ربّما هذه هي المرة العاشرة الّتي يخبرنا رعد بها أنّنا سنعود.

لم أشأ أن أبدّد فرحه فنظرت إليه، وتظاهرت بالسّعادة أمامه رغم يقيني أنّ الخبر كاذب كالأخبار الّتي سبقته.

قلبي عليك يا رعد، إنّك تغرق في الحنين، وتواسي نفسك بالقشة الّتي يتعلّق بها الغريق أملاً بالنّجاة، ليتك تتأقلم مع الحنين.

كان رعد قليل المخالطة بالنّاس، لم يكن يعرف سوى مراد وجارنا وزميليه البغداديّين اللّذين يسكنان في دمشق، وحين أطلب منه زيارتهم يرفض حتّى بدأت وحدته بافتراسه، وتحويله لشخصٍ لا يملك من الحديث سوى الجديّة المفرطة وأظنّ أن هذا الأمر هو الّذي يجعله لا يتأقلم على العيش هنا.

أضاف رعد إلى حديثه منجزاته مع مراد في المكتبة، وتعاقدهما مع مكاتب أخرى، وجلب زبائن كثر،.... الخ فانهالت زينب عليه بأسئلتها الّتي لا تنتهي، ومنها:

أبي، لنفترض أنّي كتبت رواية، كم تكلفة طباعتها ونشرها؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أبي، كم صفحة يجب أن تكون؟

فقاطعتها قائلةً: زينب، أبوك متعب، اعفيه من أسألتك.

ردّت ضاحكةً: إن لم يتحملني أبي، فمن سيتحملني!

رد أبوها: "مو بس اتحملچ، أحطچ بعيوني همين "

فجلست زينب عند رأسه، وبدأت تداعب ناصيته البيضاء بلطف، وتقرصه من وجنتيه، ثمّ خرجَت لتعيد إبريق الشاي إلى المطبخ.

قلت معلّقة على أفعال زينب مع أبيها: الأنثى تكبر ولا تكبر، ينضج جسدها وعقلها، لكن روحها الطفولية المعتادة على الدلال والغنج تختبئ في جروف قلبها هرباً من الكبر ، ومحظوظ من يجدها.

استغل أبوها فرصة خروجها وقال: ألم أقل لكِ أن زينب متيّمة في حب بغداد، ولو وافقتُ على زواجها من محمد لكنتُ موقّعاً لها على ورقة موتها البطيء.

رددت عليه: أخشى أن أقول لك ما يزعجك.

قال: تكلمي.

قلت: عندما سألك حيدر ابن عباس _ حين كنا على أبواب الرحيل _ متى ستعودون، أجبته أنت: بعد أيّام قليلة، أتذكر؟

رعد : نعم أذكر لكن شاءت الأقدار ولم نعد.

قلت: منذ أن خرجنا وهم يؤمّلوننا بالعودة إلى بغداد، لكن للأسف يبدو أنّنا لم نعد نرى تلك البلاد إلا في الصّور.

رعد: إلى أين تريدين أن تجريني بالحديث؟

قلت: إلى خطبة زينب، زوّجها يا رجل، وأنا أعدك بأنّها ستصبر مع زوجها، حتّى وإن عدنا إلى بغداد؛ عمر يقول أنّه لن يتزوّج إلّا في بغداد، وأنت تريد لزينب ألّا تتزوّج إلّا هناك، اشتقت لرؤية حفيد لنا.

رعد: اغلقي الحديث، ولا تعودي له مجدداً قلتُ لا وانتهى الأمر، وما إن فتحت فمي لأردّ عليه، تجهّم وجهه وقال: لا تعودي لهذا الحديث، لا تعودي، وخرج من الغرفة غاضباً.

محمد

دمشق .

٢٠٠٨/٢/٩م.

بعد أن انتهت والدتي من تحضير الغداء لوالدي ذهبت لزيارة خالتي ميسون، فطلبتُ منها أن تجلب لي دفتر مذكّرات زينب، وذهبت إلى غرفة أبي وجلست معه كي نلعب الشطرنج بناءً على طلب منه، وبينما نحن نلعب دار حديث بيننا، فسألته: ألا يقول لك عمي رعد شيئاً حول الخطبة، أم أنّه وأد سيرتها؟!

أجاب: لا، لا يقول لي شيئا، لكن منذ يومين سألني عنك، وقال: منذ يوم الخطبة وأنا لم أره، أيعقل أنّه خاصمني.

قلت: طبعاً خاصمته .

ردّ أبي: هو له نظرة مستقبليّة في شأن عائلته؛ يبنيها على أسس منطقيّة، فلا يحق لك أن تخاصمه لأنّه سيقرّر مصير

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

ابنتهِ، و لا تظنّ أنّه بحاجة إليكِ، فهو لن يبيت دون طعام إن خاصمته، بل ربّما تتغيّر نظرته فيك، وإن كان يفكر بنسبة واحد بالمئة أن يعطيك زينب سيرفض بعدها.

تذكرتُ كلام زينب حين أخبرتني أنّها تلاحظ تناقض قلب أبيها مع عقله الّذي أصدر قرار عدم الموافقة، فقلت لأبي ضاحكاً: أنا أمزح، لست مخاصماً لأحد، وإن شئت سنذهب أنا وأنت بعد قليل إلى المكتبة، ونجلس معه، كما أنّي لم أرها سوى في بداية افتتاحها، وفي الوقت ذاته أريد استعارة بعض الروايات لقرائتها.

ضحك أبي وقال: أنت تعلم أن عمّك رعد يقرأ، ويحبّ كلّ من يقرأ، ويشجعه لذلك تريد لفت نظره نحوك.

رددتُ عليه: لا، أريد أن املأ أوقات فراغي، فكما تعلم لم يتم تعييني في وظيفة، وقد وعدونا أن تُحل مشكلتنا بعد شهرين من الآن، والملل يرافقني في معظم أوقاتي لذلك سأقرأ.

هيّأت نفسي ثمّ ذهبنا إلى المكتبة، وحين وصلنا صافحت عمي رعد، وجلست بجانبه على الأريكة، وبالوقت الّذي أحادثه أحادث نفسي وأفكر بمَ سأرد إن تكلم حول موضوع الخطبة، وأتمنى ألّا يتكلّم حوله، لأنّني أضعت كلّ العبارات الّتي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

حضّرتها وخزّنتها في ذاكرتي لمثل هذا الموقف، فنظر نحوي وكأنّه يقرأ أفكاري ثمّ قال: "ما فات مات، فكر بعقلك وستجدني محقّاً، هل لديك مشاكل لأساعدك بحلها؟ "

وددت أن أقول له مشكلتي الكبرى هي عدم موافقتك لكن شيئا ما منعي ربّما الخجل، أو الخوف من سماع شيء يبعدني عن زينب فأجبته: لا، ليس لديّ مشكلة وجئت قاصداً مساعدتك لي، فأنا قد سمعت أنّك متيّم بحبّ القراءة، وأريد بعض الروايات الأدبيّة عن العشق، فهل تساعدني في انتقائها؟

نهض من على كرسيّه قائلاً: جميل يامحمد أنّك تريد القراءة، فأدمغتنا بحاجة إلى الغذاء، ثمّ رحنا نتجول بين رفوف الكتب، ويشرح لي عن أقسامها، وبعض مضامين الروايات .

ملّ أبي من الانتظار فقال : أنا سأذهب إلى المقهى المجاور، إن شئتَ الذّهاب للمنزل اذهب وحدك.

وبعد قليل أخذت ثلاث روايات، وكتاباً واحداً ، ثمّ فتحت الباب أريد الخروج وإذا بعمر أمامي يستعدّ للدخول، نظرتُ في عينيه قائلاً: كيف حالك؟ وخرجت مسرعاً.

عندما رآني عمر قدحت شرارات الغضب في عينيه، وتجهّم وجهه، ولم يردّ عليّ ولو ببنت شفة، فتمنيت ألّا يلاحظنا عمّي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

رعد، ويسألنا إن كان هناك خلاف بيننا فيجيبه عمر بما حصل معي ومع زينب، فقد أخبرتني أنّه لم يعلم بما حدث حتّى الآن، ولحسن حظي أن عمّي رعد كان في صدر المكتبة يرتّب الكتب على الرفوف.

عدت إلى منزلي وأرسلتُ لزينب رسالة أقصّ لها ما حصل معي فقالت: محمد أرجوك لا تدع عمر يراك مرّة ثانية، لأنّه كلّما رآك يتذكّر ما حصل، وإن أردت الذّهاب إلى المكتبة اذهب صباحاً حيث يكون دوام أبيك في ذلك الوقت، أمّا بعد الثّالثة لا تذهب فعمر يذهب بين الحين والآخر إلى هناك، يامحمد، أنت أخطأت حين أردت رؤيتي في منزلنا لوحدنا، وأنا أخطأت حين وافقت على طلبك، والمخطئ يجب أن يراعي من أخطأ بحقّه.

رددتُ عليها: حين يتكلّم الشوق يصمتُ العقل ويتنحّى جانباً، أخبرتك أنّني تصرّفت حينها دون تفكير فلا تكثري عليّ الملامة، وأردفت برسالة: اشتقت لرؤيتكِ، ثمّ جلست أراقب ما سترسله، كانت تكتب وتتردد في إرسال ما تكتبه فتحذفه، أرسلت إليها إشارة استفهام فردت: وماذا أفعل؟!

قلت: أرسلي لي صورة أو اسمحي لي أن أراكِ حقيقة.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

ردت: من المستحيل أن أفعل ما تطلبه، أمّا عن الصورة فقد عاهدت أمّي ألّا أرسل لك صوراً لي، وأنا أخبرتك بأنّي خلفت بعهدي مع عمر، لكن لا أخلف به مع أمّي، وأمّا عن اللّقاء فكأنّك تطلب من عمر ذبحي هذه المرة.

قلت: وماذا سأفعل إن مسّني الحنين.

ردت: اصبر.

قلت: لدي حلٌّ مناسب.

ردت: وماهو؟

أجبت: لقد ذهبتم إلى حديقة زنوبيا من قبل، أليس كذلك؟

ردت: نعم، ذات يوم ذهبت أمّي مع جارتنا، واصطحبتني معهما.

قلت: جميل، تظاهري بالملل يوم غد واطلبي من والدتك أن تصطحبك إلى الحديقة وقبل أن تذهبوا أخبريني، و احرصي على أن يكون الوقت بعد العصر، فقد أخبرتِني أن عمر في مثل هذا الوقت يكون في المكتبة، فأضمن ألا يلحق بكما.

ردّت: وهل تظنّ أنّ أمّي غبيّة؟! ستعرف أنّنا متفقان حين تراك، وستخاصمني.

قلت: لن أذهب بمفردي، سأذهب مع والدتي.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قالت: حسناً سأفعل ذلك، وآمل أن تقبل والدتي، لكن إيّاك أن تتصرّف بحركات صبيانيّة أمامها إن ذهبنا.

أقفلت زينب هاتفها بعد أن أخبرتني أنّها تشعر بالنّعاس، فأشعلت ضوء غرفتي وجلست أقرأ الرواية الأولى لأشتقّ منها بعض التراكيب الّتي تساعدني في كتابة روايتي.

زينب

دمشق

٢٠٠٨/٢/١٠م.

استيقظت صباحاً بكلّ نشاط وحيويّة، فنظفت المنزل، وتناولنا الفطور، وبعد أن ذهب أبي وعمر إلى وظائفهم جلست حول النّافورة وأسندتُ ظهري على جدارها متظاهرةً بالملل الشّديد، وحين رأتني أمي سألتني ما بكِ؟

أجبتها: إنّ الملل يجثم على صدري، وأكاد أختنق.

قالت: وما أدراني إن كان هذا الملل حيلة كي أسمح لكِ بالذهاب إلى خالتكِ ميسون، إن كان كذلك فابقي على حالك، وإن كان غيره فسأصطحبك معي إلى جارتنا وداد.

قلت: أنا من تلقاء نفسي لم أعد أريد الذهاب لمنزل خالتي ميسون، كما أنّها كانت في منزلنا يوم أمس، وجارتنا وداد لا تتحدّث إلّا عن زوجها وأهله، وأنا لا أحبّذ هذا النوع من

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

الأحاديث، أريد فتاة من عمري أجلس معها تفهم ما بي دون أن أتكلّم، وأحادثها دون أن تملّ منّي، وأمازحها دون أن تزعل، تصوّري يا أمّي حيٌّ كامل ليس فيه فتاة من عمري.

ردّت أمي: مازلنا في الصّباح، انتظري إلى ما بعد الغداء وسآخذك معي للتسوّق كي أشتري لكِ ملابسَ جديدة، ومن ثمّ سنذهب إلى الحديقة قليلاً، فقد طلب مني والدك ذلك، وكنت أفضل أن أجعلها لكِ مفاجأة جميلة، لكن إن كان الإفصاح عن المفاجأة يسرّ قبل موعدها يجب أن نفعل ذلك.

نهضت من مكاني وقبّلتها ثلاث قبل، واحدة على جبينها، واثنتان على خديها، وقلت لها: أنت أجمل أمّ في الدنيا. وأثناء تقبيلي لها نظرَت إلى هندامي، كان متّسخاً بعض الشيء، وشعري غير مسرّحٍ فقالت ممازحة: أين كانت عيون محمد حين أحبّكِ؟!

رددت عليها: المحبّ يرى بقلبه، لقد قال لي ذات يوم: أنتِ أجمل النخلات وأطولها في العراق، وأذكى ياسمينة في دمشق.

ذهبت إلى غرفتي فأرسلت لمحمد أنّ الخطة قد نجحت، وبعد حديث دار بيننا سألته: هل كتبت شيئاً جديداً في الرواية؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجاب: لا، صدقيني لا أستطيع كتابة أكثر من سطرين في هذه الأيام، رغم حماسي الشديد لإنهاء الرواية، ففضلت ألّا أكتب حتّى انتهي من قراءة الروايات الّتي جلبتها.

رددت عليه: إنّي اختلف معك، يجب ألّا تتوقّف، وأن تكتب كلّ يوم حتّى لو جملة واحدة.

هل تعلم يامحمد أنّ الخطوات الصغيرة هي مفتاح لتحقيق النّجاح، إنّ الأدباء يقولون: تراكم الهموم هي ما تجعل الإنسان سوداوياً، وليس بسبب همّ واحد، وهذا يعني أن الهموم لها غاية في تحويل الإنسان من شخص متفائل مبتسم إلى شخص غاضب محبط، ولا تستطيع فعل ذلك إلا عن طريق التّراكم في الشّخص المستهدف، وحبيبتك زينب تنطلق من هذا المبدأ وتقول: إن ثابرنا على الأعمال الصغيرة فستتراكم إنجازاتنا الصغيرة حتّى تصبح عملاً كبيراً.

انظر إلى المحقّق واستمدّ من أفعاله حكمة، فهو لا يمكنه معرفة التباس الجريمة، وكشف فاعلها إلا عن طريق الدلائل الصغيرة،، فلا تستهن بها أبداً.

رد محمد متعجباً: الله ما أروع كلامكِ، وكأنّ لقمان أو رعد من يكلمني، إنّي _ والله _ أرى لكِ نجاحاً مبهراً إن عدتِ

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وأكملتِ دراستك، بالمناسبة، لِمَ لا تعودين؟ فحالة أبيكِ المادية ازدهرت، وقد اقترح على أبي في الفترة الأخيرة أن يشتريا سيّارة، ويخصّصاها لتوزيع الكتب على المكتبات في ريف دمشق والقرى الصغيرة، فقد أصبح للمكتبة صدى واسع بسبب منافستها للمكاتب الأخرى في السعر.

قلت له: لم أعد أريد الدّراسة فقد مللتها، ولا يوجد أي دافع يجعلني أعود لها، واتْبعتها برسالة: ما رأيكَ باقتراح أبي؟

أجاب: اقتراح جميل، ولو تحقق ما يدور في رأسه لعملنا جميعاً في المكتبة (اثنان يعملان في السيارة، وثلاثة في المكتبة).

قلت له متعجبةً: اثنان وثلاثة، من تقصد؟!

أجاب: أبوكِ وأخوكِ، وأبي وأخي وأنا.

قلت: محمد لدي سؤال، أين سنسكن إن تزوجنا؟

أجاب: كان أبي يقول لي : منزل جدك _ يقصد المنزل الذي تسكنون به الآن _ لك ولأخيك سأقسمه لكما، وسأعطي عمّتكما حصتها مالاً، لكنّه في هذه الآونة يقول لي : سيصبح لديكَ دخلاً مادياً، فإن تزوجت سأستأجر لك شقة إلى أن تشتري منزلاً لنفسك، ويقول أيضاً: إنّي لست واثقاً من تفوق

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أحمد؛ فإن أراد الزواج سأقسم له من منزلنا غرفة ومنافعها، ومنزل جدك سيصبح مقهى أو مطعم.

سألت محمد: إذاً لا تفكر بشراء منزل خاص بك؟!

أجاب: سأشتري بكلّ تأكيد، ولذلك قرّرتُ أن اجمع من دخلي _ قبل أن أتزوج _ حين أتوظف، فإن جمعت مبلغاً لا بأس به سيساعدني والدي، وعمتي.

رددت عليه: هذا جميل، هل أدركت الآن قيمة الخطوات والأشياء الصغيرة؟

وقبل أن أقرأ جوابه ندهتني أمّي لمساعدتها في ترتيب خزانة الملابس؛ ومن ثمٍ تحضير الغداء، فاستأذنته وذهبت بعد أن طلبت منه أن ينتظر رسالة منّي أخبره بها موعد خروجنا.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ ميسون

دمشق

٢٠٠٨/٢/١٠م.

حين أصبحت السّاعة الرابعة عصراً طلب منّي محمد أن أذهب معه إلى حديقة زنوبيا للتنزه، فدخل غرفته، وخرج منها مرتدياً بنطالاً أسود، وقميصاً مشرّباً بحمرة خمريّة، وساعة على يده اليسرى، كما أن رائحة عطره تفوح في أرجاء المنزل.

كان مراد في معظم الأحيان يذهب دون أن يصطحبني معه إلى الحدائق والمقاهي فلذلك وافقت على طلب محمد دون تردّد.

أراد أحمد أن يذهب معنا، لكن محمد اعترض ومنعه، فشككت أنّ شيئاً ما بانتظارنا هناك ، ولا تفسير سوى وجود زينب.

وصلنا إلى الحديقة، كان هواؤها الممتزج برائحة الورد ينعش الصدر، ورؤية النّاس تبعث الأمل.

وجدت كرسيّاً فارغاً في مدخل الحديقة، فقلت لمحمد: ما رأيك أن نجلس؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجاب: دعينا نتجوّل قليلاً ثمّ نعود للجلوس.

وبينما كنا نتجول كان محمد كثير الالتفات حوله، وكأنّه يبحث عن شيء ما، فسألتهم عن السبب.

أجاب: لا شيء، دعينا نعود ونجلس عند البوابة .

وحين عدنا حادثت محمد عن جمال الحديقة وذكرياتي بها، وهو يردّ علي : " نعم _ لا _ جميل"، يظهر أنّه يفكّر بأمر ما، ويضع كلّ اهتمامه به فتوقّفت عن الحديث، وبعد قليل قال محمد: أمّي انظري، وأشار بيده إلى اثنتين قادمتين إلى الحديقة، وقال: أليست زينب وأمّها؟.

أجبته: بلى.

قال: انظري إلى زينب، تمشي وكأنّها ملكة، يا للغرابة زنوبيا تدخل حديقتها! انظري إلى كنّتك المستقبليّة ما أجملها.

كانت زينب ترتدي بنطال جينز، وكنزة سوداء، وغطاءً على رأسها يظهر مقدمّة شعرها حتّى وسط الرّأس، بالفعل كانت جميلة جداً، فقلت: إيّاكم أن تفقد السّيطرة على أفعالك أمامهنّ، وناديتهما ، زينب، أم عمر، تعالا واجلسا هنا.

أتين وبيد كلٍ واحدة منهن كيسٌ، فجلسنا على الأرض لأنّ المقعد لا يتّسع لأربعة أشخاص ثمّ بدأتا تريانني ما بداخل

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

الأكياس من ملابس ومكياج، فاستأذن محمد وقال: سأعود بعد قليل.

بدأنا نتحدّث عن هذه الصّدفة الجميلة، وعاتبتهما لعدم زيارتهما لي، وبعد قليل عاد محمد حاملاً في يديه حلوى النابلسيّة، والكولا، وجلس بجانبي؛ مقابل زينب وهو ينظر لها بأطراف عينيه.

فسألته نبيلة عن حاله وعمله الخ.....

ابتسم وقال لها: لا أعمل شيئاً وأراد إكمال حديثه فقاطعتُهُ وقلت لها: سيصبح كاتباً عمّا قريب، إنّه يكتب رواية.

سرح محمد في نظراته نحو الأسفل، فقالت نبيلة: جميل جداً، ما اسمها ؟

لم ينتبه لها، فقلت له: إنّها تسألك عن اسم الرواية.

أجاب: زينب

نظرنا إليه بدهشة، وقلنا بصوتٍ واحد: ماذا؟!

فأردف قائلاً: زينب لِمَ لا تأكلين؟!

ونظر إلى نبيلة وقال لها: عفواً، لم أفكر باسم للرواية حتى الآن.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وبعد لحظات قليلة وقف شخص على بعد أمتار قليلة، وطلب محمد، فذهب إليه ولما عاد سألته: من هذا، وماذا يريد منك؟

أجاب: إنّه خالد، يريد اصطحابي إلى المقهى.

قلت: ولمَ لم تذهب؟

قال: كي لا تعودي بمفردك إلى المنزل.

قالت نبيلة: لا تقلق نحن سنوصلها.

نظر محمد نحوي، وكأن نظراته تخبرني عن سوء حظّه، فهو متشوّق لمثل هذه الجلسة منذ زمن طويل، فقال: حسناً سأذهب إذاً.

وبينما كنا نكمل أكل الحلوى، أتى عمر، فألقى التحيّة، وقال: أمّي إنّ أبي يريد عودتكنّ إلى المنزل، فصديقه سيأتي مع عائلته لزيارتنا بعد قليل.

حمدت الله على ذهاب محمد، ربّما لو كان هنا لاصطدم بعمر وتشاجرا، أو سبّب مشكلة لزينب وأمّها.

دمشق
٢٠٠٨/٢/١١م.

لا أعلم ماذا يخبئ القدر لي، هذه الزيارة الثانية لصديقي البغدادي، وقد لمّح لي فيها أنّه يريد خطبة زينب لأبنه .
كم سأظلم زينب إن وافقت، وكم سأظلم نفسي في الحالتين، فإن وافقت سأظلمها لأنّها تريد شخصاً آخر، وإن لم أوافق ربما سأُحرم من وجودها بالقرب منّي حين نعود إلى بغداد، ما أقسى أن توضع بين خيارين أحلاهما مرٌّ.
لقد حاولت معرفة نفسي واكتشافها، لكن نبيلة نجحت بمعرفتها أكثر منّي، لذلك سأبوح لها علّها تجد حلّاً لمشكلتي.
سالت دمعاتي على وجنتي بعد تفكير طويل، فندهت لنبيلة، وحين فتحت الباب أطالت النظر في عيني وعانقتني قائلة: ما يبكيك يا مهجتي، والله كأنّ دموعك جمر يسقط على فؤادي.
أغمضت عيني ورأسي متكئ على كتفها، وشعرها الّذي صبغه البياض على رأسي، وقلت لها: حين يبرد جسدي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجلس بجانب المدفأة، لكن حين تبرد روحي لا يدفئها إلا هذا الحضن، فلا حرمني الله منه.

جلسَتْ بجانبي على السّرير وقالت: خذ نفساً عميقاً وأخبرني بما أحزنك.

قلت لها: إنّ الهموم كثيرة، ولا تأتي دفعة واحدة، بين حنين إلى بغداد، وتقرير مصير زينب سالت دمعاتي الآن، وأردفتُ قائلاً: لقد لمّح لي صديقي أنّه يريد خطبتها لابنه، وكما تعلمين إن وافقت وعدنا إلى بغداد ستبقى زينب بالقرب منّا، لكنّي متيقن بأنّها ليست موافقة، فهي تريد ابن مراد، وإن أجبرتها على الزّواج من ابن صديقي البغداديّ سألوم نفسي مادمت حيّاً إن لم يتفقا.

ابتسمت نبيلة وقالت: هل هذا الأمر يستحقّ عناء التّفكير، دع المياه تجري كما تريد ولا تحدّد وجهتها، أريد أن أبوح لكَ بسرّ أخفيته عنك، إن زينب ومحمد قد وقعا في مصيدة العشق منذ زمن طويل.

ابتسمتُ قائلاً، أوتظنّين أنّي لا أعلم، مثل هذه الأمور لا تَخفى عليّ، وعلمتُ أنّك تعلمين بحبّهما، لذلك لم أشأ أن أتكلّم عن

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

هذا الأمر، أو أن أدخل فيه، فتركت لكِ مسؤوليّة مراقبة زينب وإرشادها

تعجبَتْ نبيلة وقالت: كيف عرفت؟!

أجبت: حين تقدّم محمد لخطبتها كانت تضيّفنا القهوة ولمّا وصلت أمامي وانحنت تدلّى طوق من عنقها فيه حرفان؛ أول حرف من اسمها، وأول حرف من اسم محمد، وهذا الشيء كافٍ لمعرفتي بحبّهم.

نبيلة: إذاً أخبر صديقك بأنّك لست موافقاً ولا تحملّ نفسك عناء هذه الأمور، واترك زينب لنصيبها.

قلت لها شاكياً همي: ها هو العمر يمضي، اللّحظات الّتي نعيشها تعادل سنين، والسِنين بعد أن نعيشها نشعر كأنّها مرّت بلحظات، يالغرابة الحياة يا نبيلة، ويالحسرتي على ما حلّ بنا بعد فراق بغداد!

قالت لي: انتظرني، سأعود بعد قليل، وخرجَت من الغرفة، ثمّ عادت إليها بملابسٍ لأوّل مرّة أراها عليها، فوقفَت أمامي وأمسكَت شعرها من الخلف، ثمّ رفعته نحو الأعلى، والتفت لفّة كاملة حول نفسها وقالت: ما رأيك؟! هذه الملابس

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

اشتريتها يوم أمس، هيّا عانقني وامسح حزنك بجسدي، وأطفأتِ الأنوار.

محمد

دمشق

٢٠٠٨/٢/١٤م.

عندما عدتُ من سهرتي وجدت أبي جالساً في غرفة الضّيوف؛ يحسب أرباح المكتبة لهذا الشهر، فجلست معه وحاولت إقناعه أن يشارك عمي رعد بشراء سيّارة لتوزيع الكتب على المكتبات، فقال لي: سنتريث في الأمر حتى نهاية الشّهر القادم، ثمّ طلب منّي أن أذهب يوم غد كي أسعى من أجل أن أتوظّف.

قلت له: قلت لك منذ بضعة أيّام أنّهم وعودنا بتوظيفنا بعد شهرين.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قال: يا بني إنّ وعودهم كبرق سحابة لا تمطر، اذهب يوم غد إلى صديقي الّذي أرسلتك إليه عندما توظف عمّك رعد، وأنا سأتكلّم معه لمساعدتك.

قلت: لما تهوّل الأمور لهذا الحد يا أبي؟!

أجاب: لا يوجد توقّف في هرم النّجاح، إن لم تواصل المسير نحو قمته، ستجد نفسك تتهاوى إلى قاعه، وأنت الآن أصبحت بالغاً، وفي بداية تأسيس مستقبلك، فلا تفوت منك يوما واحداً في هذه المرحلة، اتعب في الصغر كي ترتاح في الكبر.

وضعتُ كلامه نصب عيني، وذهبت إلى غرفتي، وبدأت أفكّر بما أمرّ به، لماذا من بين جميع الطّرق نسلك طريقاً لا نرى نهايته، ولا نعلم إن كانت مغلقة أم لا، ولماذا من بين آلاف الأرواح وقعت في حبّ روح زينب، لا أعلم لكنّي أفضل هذه الصعوبات الّي تحول بيني وبين زينب على عيشِ الرغد مع الآخرين.

لقد تخاصمت معها منذ الصباح والسّبب أنّها طلبت منّي أن أضع اسماً مستعاراً بدلا من اسمها في الرواية، فرفضتُ لأنّي أريد أن تكون الرواية خالية من الخيال، فإن شاء القدر واجتمعنا _ ذات يوم _ تحت سقف واحد سنريها لأولادنا،

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وسيعلم النّاس أنّ الحواجز بين العاشقين ستُزال مهما كانت كثيرة، لكن إن لم نجتمع سيعلم النّاس أنّ القدر يحارب العاشقين.

لا أعلم هل يجب أن أفعل ما طلبته زينب أم أبقى على رأيي، لقد قال لنا معلم الفلسفة ذات يوم مقولة أعجبتني بشدّة: حين توضع في حيرة بين تنفيذ أمر _تظنّ أنّه سيعود عليك بنتائج إيجابيّة _ أو عدم تنفيذه، وترى من البداية أنّك ستندم في كلتا الحالتين، نفذه واندم ولا تفعل العكس فالحياة حقل من التجارب يجب ألا نغادرها وبداخلنا مشاريع متوقّفة، وأراء مكبوتة، يجب أن نفصح عن كلّ ما بداخلنا.

أمسكتُ القلم وبدأت أنزف حبره على دفتري، كتبت:

"جميع الّذين يحبون بصدق يقولون أنّهم كانوا لا يؤمنون بعقيدة العشق، وهذا ما حصل معي طيلة فترة دراستي، كنت استهزئ بمن يعشقون، وأحاول دبّ الخلاف بينهم، واستمتع أثناء مشاجرتهم، فالعشاق كالمجانين، الاثنان لا يسمعان نداء العقل.".

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

ثمّ بدأت أتساءل، لمَ لمْ أكن محايداً، ولا أتدّخل في شؤونهما، ولمَ كان صديقي خالد يؤيدهما ويدعمها، ولم كان البعض يحاربهما؟

استوقفتني آراء الناس ومواقفهم تجاه العاشقين، فاستنتجت ما يلي: إنّ النّاس مصنّفة ثلاثة أصناف حول موضوع العشاق، الصّنف الأوّل يقف معهم وقفة حزم ويساعدهم لتحقيق غايتهم، والصّنف الثّاني لا يكتفي بمشاهدة ما يقدّمه العاشقون من تلقاء أنفسهم، بل يضعهم في مآزق، ويستمتع بمشاهدتهم وهم يحاولون الخروج منها، وهذان الصّنفان لا يعودان بأضرار عليهم وهما أفضل من الصّنف الثّالث الّذي يصدر قوانين صارمة بحقّهم، ويقمع حبّهم بحزم كعمي رعد.

زينب

دمشق
٢٠٠٨/٢/٢٨م.

في الصّباح كان الجوّ مائلاً للبرودة، ورائحة الياسمين تفوح في أرجاء المنزل، وكانت العصافير تغرد، وتزقزق في فسحته الّتي تقابل السّماء؛ وكأنّهم أرواحٌ للعاشقين تغازل بعضها.
في بعض الأحيان أتمنى أن أكون أنا ومحمد عصفورين، نتعانق في السّماء، ونذهب إلى عالمٍ بعيدٍ عن الألم، لا يوجد فيه إلّا الحبّ.
استيقظ أبي وعمر ثمّ ذهبا إلى عملهما بعد أن أعددت لهما الفطور بمساعدة والدتي، وبعد ساعات عاد عمر متجهّم الوجه، والحزن يكسو ملامحه، لم اتجرأ على أن أسأله عن السّبب، لكن من المؤكّد أن هناك أمراً عظيماً قد حدث معه.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

دخل غرفته وأغلق الباب بقوّة كبيرة، فذهبتُ وقلت لوالدتي: إن عمر عاد والسمّ يقطر من وجهه، لا أعلم ما الّذي حصل معه.

اتجهت أمّي نحو غرفة عمر بسرعة، فتبعتها ووقفت بجانب النافذة لأسمع ما حصل معه.

سألته أمّي: ما بك؟!

لم يجب بشيء، فكرّرَت سؤالها.

أجاب عمر بصوت ممزوج بالغضب والحزن: لقد فُصلتُ من وظيفتي.

ردّت عليه أمي: ولماذا، هل تشاجرت مع أحد، هل قصّرت بشيء؟

أجاب عمر: لا يا أمّي، لكن أنا أدرّس بمدرسة خاصة، فأخبروني أنّ المدرسة أصدرت قراراً تعطي فيه الأولوية للسوريين في حقّ التوظيف.

قالت أمي: لاحول ولا قوة لنا هنا يا بني، علينا بالصبر إلى أن نعود إلى بغداد ثمّ ندهَتْني قائلة: زينب أحضري كوب ماء لعمر.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وعندما أحضرته وأعطيته إياه رماه في الأرض بعد أن شربه، فخرجتُ من الغرفة خائفةً، وبقيَتْ أمّي تواسيه حتّى نام.

بعد ساعاتٍ عاد والدي حاملاً في يديه بعض الحلوى، وحقيبته الّتي لا تفارقه، فجلسنا على الأرائك في الإيوان، فرش أبي الحلوى على المنضدة، ونظر نحوي تارة، و نحو أمّي تارة أخرى، وقال: ما بكما، هل تخفيان شيئاً؟!

قالت أمّي: لقد فصلوا عمر من وظيفته .

ردّ أبي بحزن: وأين هو الآن؟

قلت له: في غرفته.

وضع أبي كفيه على خديه وأسند ذراعيه على ركبتيه، ونظر نحو الأسفل.

كم تمنّيت في هذه اللّحظات أن نركب الرّيح، ونعود إلى العراق، فلا يمكن لوطن أن يحنّ علينا مثله، لكنّي على الفور تراجعتُ في أمانيَ، كيف سأترك دمشق وفيها وطني، فأضفت الوطن إلى قائمة الأشياء الّتي لا تقبل التثنية في معتقدي (الدين - الحب - الوطن)، وربِما لو خيرت بين العراق، ومحمد لا خترت محمد لأنّ الإنسان يبقى لاجئاً أينما كان إن لم يكن مع من يحب.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

حضر عمر وجلس على الأريكة، فرفع أبي رأسه نحو الأعلى ثمّ وضع كفه على كتف عمر قائلاً: لا تحزن يا بني لا يُسدّ باب _ من أبواب الرزق _ إلّا ليُفتَح آخر، في المستقبل القريب سنشتري سيارة ونعمل بها ، وقد درسنا هذا المشروع أنا ومراد، وأنا أثق بأنّه سيعود للفرد الواحد من العاملين فيه ربح يضاهي راتبك.

قال عمر: آمل ذلك، لكنّي غير مرتاح هنا يا أبي.

ردّ أبي ضاحكاً: إنّ الّذي يسمعك تقول هذا الكلام يظنّ أنّك تحمل قاسيون فوق صدرك، سنزوجك قريبا، ونستبدل زوجتك بالجبل، ولا تقل لي أين سأسكن ومن هذا الكلام، فلا أظنّ أن هناك فارقاً إن زاد عدد أفراد العائلة نفراً.

ردّ عمر: يا أبي لا أخفيكَ سرّا، إن أخبرتك بعدم رغبتي بالزّواج أكون كاذباً، لكن لا أريده هنا، كيف سأتزوج وليس لدي منزل، أو أرض، تخيل أن تتخاصم مع عمّي مراد ويُخرجكَ من المكتبة، فهو من أصحاب الأرض هنا، ولا أظنّ أنّ هناك من سيقف في صفّك، أو تخيّا أن يطالبك بإفراغ المنزل، لأنّ ولديه مقبلان على الزّواج، أين سنذهب حينها؟!

قلْتُ لعمر: لا من المستحيل أن يفعل ما تقوله.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نظر عمر نحوي نظرة مليئة بالغضب، فقلتُ لهم: لا أعلم اعتبروني لم أتكلم، وذهبت إلى الغرفة الّتي تقع بجانب الإيوان لأتنصّت على حديثهم.

فقال عمر لأبي: إن لم يكن لدي منزل خاص بي، أو بكم، وعمل ثابت أضمن فيه العيش بحياة كريمة لن اتزوج حتّى لو أصبحت في الخمسين.

ردّ أبي: إنّ الكرام أمثال مراد لا يتخلّون عن عطائهم، حتّى في الخصام، وأمّا عن الزّواج فأنت حرّ.

قال عمر: قبل أن نأتي إلى دمشق أخبرونا أن اللاجئ العراقيّ في سوريّة يشعر أنّه في وطنه، وبالفعل هذا ما حدث عندما دخلناها، فمازلت أذكر إنسانيّة النّاس هنا، وخاصة أهل الحيِ، لكن هناك أشياء كثيرة قد تغيرت، فحين دخلناها كانت سوريّة تمنح حقّ العمل والتوظيف في القطاعين، العام والخاص للاجئين العراقيين، أمّا اليوم اقتصر العمل في القطاع الخاص فقط، أيضاً كان يُقدّم للعراقيين مؤونة شهريّة لكنّها أُلغيَت بعد حين من الزّمن، وهذا يثبت أنّ الأشياء الجميلة لا تدوم.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

استوقفتني جملة عمر الأخيرة، وأصابني القلق بسببها، فذهبت واستلقيت على ظهري في صدر المنزل، وبدأت أفكر، هل يعقل أنّ محمد لن يدوم لي؟! فاسترجعت كلام والدتي عندما قالت لي: إن أجمل ما رزقت به في حياتي هو زواجي من أبيكِ.

لا أذكر أنّهما اختلفا لأكثر من يوم، إذاً عمر يبني نظريّته على أشياء استثنائيّة، والاستثناء لا تشمله القاعدة.

ملك

استنبول

٢٠٠٨/٣/٥م.

كُتبَ على من فارق وطنه أن يدع روحه قبل أن يغادر.

يقولون أن استنبول بمفردها تعادل سوريّة في الحجم، لكنّها لا تسعني حين يداهمني الشوق، ويُغير عليّ.

زوجي يخرج في الصّباح إلى العمل ولا يعود حتّى المساء، وأولادي ترعرعوا هنا، فمن لم يولد هنا، كان صغيراً عندما أتينا، ولا أريد أن أشكو لهم خوفاً من أن يحملوا همّي.

ربّما أصبح الوضع أفضل حالاً بعد التّطور الّذي يشهده العالم، فالآن أستطيع أن أرى دمشق، وأخي وعائلته عبر الهاتف، لكن هذه الرؤية لا تروي كما لو أنّها كانت حقيقة.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

عندما خرجت من دمشق ظننت أنّ الزّمن توقّف بها، وأنّ الجميع(صديقاتي، جيراني، اولاد الحيّ الّذين كنت أرسلهم ليشتروا لي) سيبقون في انتظاري لكنّهم نسيوا غيابي، فالأولاد كبروا، والصديقات تزوجن، والجيران منهم من مات ومنهم من نسيّ وجودي، لم يبق لي في تلكَ البلاد سوى أخ كريم، ومنزل قديم، وقبري والديّ.

هؤلاء البغداديون الّذين يسكنون في منزلنا؛ ألا يشعرون بروحي تطوف حول النافورة كل يوم! أم أنّهم مثلي سافرت أجسادهم فقط، وأرواحهم تطوف حول منزلهم؛ في بغداد، ولا يشعرون إلّا به.

ما يخيفني أنّ زوجي كان ينتمي لحزب سياسيّ يخالف الحكومة في دمشق، وأن بعض أصدقائه يخبرونه أنّهم يتوقعون حدوث حرب طويلة الأمد في سوريّة.

بالنسبة للحرب حالنا كجميع البلاد الّتي وقعت فيها، فلم تخفني فكرة الحرب بقدر ما أخافتني فكرة الحرمان من العودة، لأنّه مازال لدي بصيص أمل بزيارة دمشق.

جلست على شرفة منزلي بعد أن أصبحت الساعة الرابعة، فاتصلت بمراد، كان مجتمعاً مع عائلته في منزله، فدار حديث

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

بيننا وعندما سألته عن أولاده، أمسك أحمد الهاتف وحدثني عن حاله ودراسته، ثمّ أمسكه محمد وقال لي أنّه سيبدأ بالتدريس بعد ثلاثة أيام، وقد اقترب موعد العطلة الصيفيّة، فسألته عن المستجدات في خطبته.

أجاب: ليس هناك جديد، ما زلت بانتظار موافقة والدها.

قلْتُ له: أريد رؤية زوجتك المستقبليّة، أليس لديك صورة لها، فأخبرني بأنّه لا يوجد معه.

قلت: متى آخر مرة رأيتها فيها؟

أجاب: منذ فترة طويلة.

قلت: لدي اقتراح يجعلك تراها، ما رأيك أن تذهب لمنزلهم، وتخبرهم أنّي اشتقت إلى المنزل وأريد رؤيته، ثمّ تتصل بي مكالمة فيديو، وبعد قليل تخبرهم أنّي أريد التحدث معهم، فأرى زوجتك المستقبلية، وأنت تراها.

ظهر أحمد على الشّاشة وقال: أنا أذهب إن كنت تريدين، فصفعه محمد علي يده وقال: اخرس، ما علاقتك أنت؟ وعم الضّحك لدى الجميع.

كررتُ اسأل: ما رأيك يا محمد.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

تردّد في القبول، لكنّه قال حسناً سأذهب يوم غد، فكوني بانتظار مكالمة منّي، ثمّ أقفلنا المكالمة.

بعد قليل أرسل لي من هاتفه الخاص رسالة يطلب منّي الإصغاء إليه، قائلاً بعدها: لدي مشكلة كبيرة مع أخيها، هل أذهب أم لا؟ انصحيني.

رددت عليه: حسب المشكلة.

محمد: لقد علم بحبّي لها.

أنا: ما الغريب؟ لقد تقدمت لخطبتها، من الطبيعيّ أن يعلم.

قال: لا، أقصد أنّه رآني معها وهي تعانقني.

ابتسمت وقلت له: ظننتك عاقلاً، أين وكيف وعانقتها، وماذا حدث عندما رآكما؟

سرد لي قصته وما حدث بينه وبين عمر، فطلبتُ منه ألّا يذهب إن كان عمر هناك.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ محمد

دمشق

٢٠٠٨/٣/٩م.

كعادتي عندما يحلّ المساء، أجلس وراء طاولتي، وأكتب كلّ ما استجمعته ذاكرتي لخدمة الرواية.

بعض الكتّاب يعتمدون على خيالهم في تأليف القصة وحبكتها، وهذا ما وجدته في الروايات الّتي أعطاني إيِاها عمّي رعد، لكن أرى أنّ الّذي يكتب حقيقته يحتاج توظيف الخيال لزيادة المتعة لدى القارئ فقط .

والآن، سأطرح سؤالاً في روايتي، وسأترك الإجابة للقارئ " ماذا أفعل كلما اشتقت إليكِ؟ "

سؤال مؤلّف من خمس كلمات، لكن لا يتّفق اثنان على جواب واحد فيه، وبعض الأشخاص يحتاجون إلى أكثر من صفحة للإجابة عنه.

انتابتني رغبة شديدة أن أسأله لزينب، ففتحت هاتفي، وسألتها إيّاه، أجابت ما يلي بمقطع صوتي: اِجلسْ على نافذتك وانظر إلى القمر، ثمّ كلمه، هذا ما أفعله الآن، فإن فعلت مثلي ستشعر بأنّك معي، وستروي ظمأ شوقك.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نظرت إلى القمر، كان كوجه زينب، كلمته كما قالت لي، وبعد قليل أرسلت لها رسالة محتواها: أحتاج شيئاً غير المحادثةَ كتابة يقربني منك.

ردّت: ضع السّماعة في أذنيك.

نفذت ما طلبت منّي دون أن اسألها عن السّبب، فقلت لها: لقد وضعتها.

قالت: أغمض عينيك، وأفتح آذان قلبك.

بدأت تغني لي أغنيتي المفضلة بصوت هادئ (هالأسمر اللون) وبعد قليل بدأت أسمع جزءاً من الصّوت حقيقة والآخر في الحلم، وغطّيت بنوم عميق.

استيقظت السّاعة الرابعة صباحاً من حلم جميل، فقد رأيت دوّامة من الزّهور احتضنتني، فوجدت نفسي في مكان أعرفه جيداً، لكن لا أعرف أين يقع، كان المكان غريباً، لا يوجد فيه إلّا أنا وزهور وفراشات بمختلف الألوان، مكان لا ظمأ ولا سغب فيه، يتقلّص تارة، ويتمدد أخرى، وحين استيقظتُ طرقت أبواب ذاكرتي لأعرف أين يقع هذا المكان، كانت المؤشرات كلّها تشير إلى زينب، لا شكّ أنّ ذلك المكان هو

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلبها، لأنّي سعادتي في الحلم تساوت مع سعادتي حين قابلتها، وأنا لا أفصل الحلم عن الواقع.

كان الهاتف على صدري، فتحته فرأيت رسالة قد كتبتها زينب بعد أن نمت محتواها: نُمتَ يا قلبي، لو كان صدري وسادتك في كلّ مرة يغلبك النعاس، وجسدي غطاؤك حين تشعر بالبرد، وشفاهي طعامك حين تشعر بالجوع، هذا الكلام لأوّل مرة أقوله لك، فعندما سألتني ماذا أفعل كلما اشتقت إليكِ لم أجبك بالحقيقة، فلا دواء للمشتاق سوى اللّقاء ، وأنا حقاً اشتقت إليك.

كان صوت زينب كالمخدرات حين غنّت لي، فقد نسيت ما كنت أفكر فيه، وشعرت بروحي تحلق عالياً في السماء، ما أجمل الإدمان على ذلك النّوع من المخدّرات، فهو ينعش الرّوح والجسد .

ذهبت وتوضأت ثّم بدأت أصلي، صحوت بعد شرود عميق أثناء صلاتي فلم أجد لساني ينطق بغير زينب ونسيت بأيّ ركعة أنا، فعدت الصلاة من جديد، وبعد أن انتهيت دونت ما حصل معي لأضيفه إلى روايتي، ثمّ قصصت رؤياي برسالة لزينب وانتظرت حتّى بزوغ الفجر فارتديت الطّقم الّذي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

اشتريته للخطبة، وذهبت لأدرّس بدلاً من معلمة ذهبت في إجازة بسبب حملها، وتركتُ هذا الخبر مفاجأة لحبيبتي .

وصلت المدرسة، كنت مرتبكاً ولا أعلم كيف سأتعامل مع الطلّاب دون تخطيط مسبق لكن شوقي لأرى نفسي معلماً يبني الأجيال نسخ هذا الارتباك، فبعد أن جلست مع المعلمين أعطوني بعض النّصائح ودخلت مبتسماً إلى الصف.

كان أوّل درس سأعطيه للطلاب هو قصيدة اللّقاء المنتظر للشاعر جميل بن معمر المُلقب بجميل بثينة، وقد استوقفني هذان البيتان _ أثناء شرحي للقصيدة _ اللذان يخاطب بهما الشاعر محبوبته :

"لو تعلمين بما أجن من الهوى،

لعذرت أو لظلمتِ إن لم تعذري

والله، ما للقلب من علم بها،

غير الظّنون وغير قول المخبر"

أي وجع كان يحتلّ قلبك يا جميل، وكيف كانت حالك حين تقدمت لخطبتها ورفضك أهلها؟!

إنّي أمرّ بما كنت تمرّ به، وأخشى أن تكون نهاية زينب كنهاية بثينة، فقلبي لا يستطيع الصبر إن رآها في حضن غيري .

مراد

دمشق
٢٠٠٨/٤/٢٩م.

جلسنا أنا ورعد نحسب أرباح الشّهر الّذي مضى في مقهى قاسيون، مع كوبين من الشاي الساخن.
كانت دمشق متوهجة بأضوائها كأنّها مصممة من اللؤلؤ والمرجان، ويالروعة المكان في هذه الأثناء، إنِها السابعة مساءً.
كنّا أنا ورعد لا نختلف أبداً في قسم الأرباح، فهو لا يعيد الحساب بعدي، ولا يعد الأموال، وأنا أقابله بالمثل، فأصبحت هناك ثقة كبيرة بيننا.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت لرعد لا أعلم لِمِ يذمّون العمل المشترك بين شخصين، ويتكهّتون بوقوع مشاكل بين أربابه، إنّي أرى عكس ذلك تماماً، فلو كنت أدير هذه المكتبة بمفردي لفشلت.

إنّ توجيهاتك لي وكفاءتك بالعمل هي من أوصلنا لهذا النجاح، وأنا أشكرك من قلبي.

ردّ رعد: الأشخاص حظوظ يامراد، ولكي تبقى تلك النّظرة ثابتة في ذهنك (أنّ العمل المشترك أفضل) عليك أن تنتقي سموح الوجه، لين المعاملة، حافظ السّر، وأمين على الأموال لا ينسى الفضل أثناء الخصام، ولا يشكّك في شريكه، وأمّا عن شكرك لي فلا شكر على واجب، أنا ممتن لك ما حييت، فلو استطعت أن أقدّم روحي لك هدية لما تردّدت، أنا لا أنسى معروفك يامراد.

خطر لي أن أقول له: إن كنت تحمل لي هذا الود، فلماذا لم تزوّج ابنتك لابني، كفاه سهرا وعذاباً، لكنّي لم أشأ كي لا أعكّر صفو الجلسة، فأكمل حديثه قائلاً: أنا متشوّق لقراءة رواية محمد، متى سينتهي منها؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت: لم يبق إلّا القليل، وسأطبعها له في المكتبة ثمّ سأنشرها في المكتبات الأخرى إن اشترينا آلية للتوزيع، وبعد أن صمتنا قليلاً سألته: ما رأيك أن نتناول العشاء هنا؟

أجاب: موافق لكن بشرط.

أنا: وماهو شرطك؟

ان نستدعي زوجاتنا أولادنا.

اتصلت بمحمد وطلبت منه أن يحضر هو وأمه وأخيه، واتصل رعد بعائلته وطلب منهم الحضور باستثناء عمر لأنّه يجلس في المكتبة بدلاً من أبيه.

ولما قدِموا جلسنا على المنضدة كأنّنا عائلة واحدة، أنا وزوجتي بجانب بعضنا مقابل رعد وزوجته، وزينب مقابل محمد، وأحمد بجانب أخيه.

كانت نسمات الهواء تتسلّل بيننا، وصوت السّيدة ماجدة الرومي ينساب من الآلات الموسيقية، والجميع مندمج مع الصوت، ولو أن في المقهى مكاناً للرّقص لرقصت مع زوجتي فالأغنية الّتي كانت مشتعلة (يسمعني حين يراقصني) تهيّج المسامع وتحث الأجساد على الرقص.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نظرت بأطراف عيني إلى زينب كانت خجولة ولا تأكل، وهذا الأمر ليس غريباً عليها، لكنّي تفاجأت عندما رأيت محمد أيضا لا يأكل، لم أحرجهما وأكملت عشائي، ومن ثمٍ شربنا العصير واتفقنا أنا ورعد أن نذهب صباح يوم غد إلى أحد مكاتب السيارات لنشتري سيارة ونهيّئها للعمل، ومن ثمّ عاد كلٌّ منا إلى منزله.

حين وصلنا طلب محمد من أمّه أن تحضّر له طعاما، فسألته متعجباً: وماذا كنت تفعل منذ قليل؟!

أجابني ضاحكاً: شعرت بالخجل وكلّما أردت ابتلاع اللقمة أنظر إلى زينب فأجدها تضحك، لذلك لم أستطع أن أكمل طعامي هناك.

خلدت إلى النوم، وحين استيقظت تناولت الفطور وطلبت من محمد أن يستدعي لي صديقه خالد، فقد أخبرني ذات يوم أنّه على علم بالأسعار والجودة، فحضر خالد بسيارته وجلست بجانبه ثمّ انطلق إلى منزل رعد، وعندما وصلنا جلس خالد على الكرسي الأمامي، وجلست أنا ورعد في الكرسي الخلفي.

مررنا على مكاتب كثيرة، وكلّما أعجبتني سيّارة يرفضها خالد بعد أن يجرّبها.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

بعد عدة ساعات من البحث قال خالد: يا عماه هذه المكاتب تجاريّة، ولا أظنّ أنّ فيها آليات نظيفة، حبذا لو اشترينا لك من أحد الأشخاص.

سألته: وهل تعرف أحداً لديه سيّارة يريد بيعها؟

أجاب: سأتصل بأبي فقد أخبرني منذ أسبوع بأنّ لديه سيارة في الشركة يريد بيعها، ولا أعلم إن كانت موجودة حتّى الآن.

اتصل خالد بأبيه فرد عليه: أحضرهما إلى الشركة، فطلبهما موجود عندي.

انطلق خالد نحو شركة أبيه التجاريّة وعندما وصلنا استقبلنا بأفضل استقبال وأحضر لنا القهوة، ثم اصطحبنا إلى السيّارة، وأعطانا مميزاتها ومواصفاتها، وسعرها.

كانت السيارة(فان) مغلقة من الخلف، لها باب على جانبها، وباب في مؤخرتها، فابتسمنا أنا ورعد لأن النقود الّتي معنا لا تكفى لشراء آلية حديثة ونظيفة مثلها.

قلنا له: نحن نريد آلية بقدر ما نملك من مال.

رد علينا: الأشياء الثمينة بسعرها، لا يغريكم الرخص في هذه الأمور، وأنا لا أريد منكما المال الآن، خذا السيارة وأبقوها عندكم لشهر كامل، واعرضاها على جميع المكاتب فإن لم

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

تعجبكما بإمكانكما إرجاعها، وكما قلت لكما ادفعا ما تشاءان من المال حين تريدانها، والبقية بالتّقسيط.

تشاورنا أنا ورعد قليلا ثم قلنا له لنكتب العقد الآن إذا.

فقال: على بركة الله.

أعطيناه ثلثي سعرها ومن ثمّ صعدنا لنعود إلى المكتبة، وكنت أنا السّائق لأنّ رعد ليس لديه شهادة قيادة سوريّة، وطوال الطّريق نبتسم ونضحك كأنّنا أطفال اِشترى أحدهم لنا لعبة.

محمد

دمشق

٢٠٠٨/٥/٦م.

بعد أن أشترى أبي وعمّي رعد سيّارة، طالباني بالتّعلم على القيادة في إحدى المدارس لكي يصبح لديّ شهادة في قيادة المركبات، ونبدأ بالعمل عمّا قريب، فأصبحت أذهب كلّ يوم ثلاث ساعات.

حين صعدت على السّيارة لأوّل مرّة كانت الابتسامة تملئ وجهي، وفي كلّ دقيقة التقط صورة لي لأرسلها لزينب.

أصبح يومي مقسّم إلى ثلاثة أقسام، الصّباح للمدرسة ومنتصف النّهار للتّعلم على القيادة، واللّيل للكتابة ولزينب كما أنّ هناك فواصل بين كلّ وقت وآخر وهو محادثة زينب.

عدت من المدرسة، كانت السّاعة تشير إلى الواحدة ظهراً، لن أذهب لمركز تعليم قيادة السيارات، وهاتف زينب مغلق؛ فقررت أن استحمّ ومن ثمّ أكتب في الرواية، فقد اجتزت ثلثيها بحسب ما خطّطت له، وقبل ذهابي إلى الحمام نظرتُ من النافذة، فرأيتُ أبي قادماً بالسيّارة، فابتسمت وقلت:

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

سبحان مغيّر الأحوال، كيف تبدل حالنا بهذه السرعة، كان أبي لا يملك من الدّخل إلا آجار المحال التجاريّة الّتي تركها له جدي، وكان يخاف في بعض الأحيان أن يشتري حلوى غالية الثّمن أو ملابساً جديدة كي لا ينفذ المال من جيبه قبل أن يقبض اجرة الشّهر القادم، أمّا اليوم أصبح لديه مكتبة وسيارة، صحيح أنّهما مناصفة مع عمّي رعد، لكن لم نكن نحلم بمثل هذا من قبل، وها أنا قد توظّفت وسأقبض راتباً كلّ شهر، ولو كان عمي رعد موافقاً على خطبتي من ابنته لكنتُ متزوّجاً الآن.

بعد أن انتهيت من الحمام، تناولت الغداء، ثمّ جلستُ لأكتب، لم أكن أحتاج إلى جهد عقليّ أثناء الكتابة، كل ما عليّ أن أجلس وراء طاولتي وأمسك القلم، فتتزاحم الحروف لتشكّل أفكاراً وتخرج من تلقاء نفسها إلى الورقة.

اتصل بي خالد وقال: سنذهب أنا وبعض الأصدقاء إلى تدمر، هل تذهب معنا؟

أجبته: انتظر قليلاً وسأردّ عليك.

هنا كانت زينب قد فتحت هاتفها، فأرسلت لها: سنذهب إلى مملكتكِ.

تفاجأت كثيراً ممّا قلته، وقالت: لم أفهم ما تقصده!

رددت عليها: أتذكرين عندما التقينا في الحديقة أنا وأمّي، وأنت وأمّكِ؟ كان اسم الحديقة زنوبيا، وعندما رأيتك قادمة من بعيد قلت لأمّي انظري إن زنوبيا قادمة إلى حديقتها، فقد كنت تمشين كالملكات، ومنذ ذلك اليوم تقول لي أمي: كيف حال زنوبيا؟ ولا أحد يعلم ما تقصده سوى أنا وهي، والآن نريد الذهاب إلى تدمر فهناك نشأت مملكة زنوبيا، ومازالت آثارها حتى الآن.

ردّت: حقّاً تراني ملكة! أتمنى أن أرى نفسي بعينيك ياحبيبي.

قلت: إن الجمال الذي يراه المحبّ بمحبوبته لا يمكن أن يراه أحد غيره حتّى المحبوبة ذاتها، دعكِ من هذا، هل تسمحين لي بالذّهاب؟

أجابت مازحة: بشرط أن تأخذني معك.

قلت لها: أعدك بأن أقنع والدي لنذهب نحن وأنتم _ ذات يوم _ إلى هناك، وأنا أضمن موافقة والدك فهو يحب التّاريخ كثيرا. أنهيت محادثتي معها، واستأذنت والدي، وانتظرتُ خالد لكي نذهب إلى تدمر.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كنا أربعة شباب(أنا وخالد وليث، وجواد) في سيّارة خالد أثناء ذهابنا، وفي الطّريق دارت أحاديث بيننا لكن ما أضحكني وأحزنني في الوقت ذاته قصّة حكاها لنا جواد عن الغنيّ والفقير، فقد قال اعتراضاً على كلام ليث " إنّ المجتمع يساوي بين الفقير والغنى" :

كنت في زيارة _ مع أبي _ إلى صديقه ياسين، ومعنا أخي الصغير الّذي يبلغ من العمر ستّة أعوام، فقام أخي بضرب ياسين في عينه ضربة مؤلمة وشتمه.

كان صغيراً لا يعي ما يقول، ولا يعلم ما يفعل، فأمسكته ووبخته .

قاطعني ياسين قائلا: الأطفال كالملائكة، طفل وأراد اللّعب والمزاح لا يستحق هذا التوبيخ، سيتعقّد إن وبخته، ويصبح سوداويّاً في المستقبل، ثمّ حضن الطفل وأعطاه السكاكر وقبله.

شاء القدر أن أجلس معه مرّة أخرى وكان عنده أحد الأشخاص وطفله الصغير، فقام ذلك الطّفل وركض في المنزل قليلاً ثمّ ضرب حجرة فأصابت الكرسيّ الّذي يجلس عليه ياسين، فغصب غصباً شديداً وقال لأبيه: يبدو أنّك لم تعتنِ في

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

تربيته أبداً، هذا غلط كبير منك، طفلك ليس عنده احترام لمن هم أكبر منه سناً، وظلّ يوبخهما حتّى خرجا من منزله.

لماذا اعتبر ياسين ضربة أخي الّتي أصابت عينه مزاحاً، ومنعني من توبيخه كي لا يصبح سوداويّاً في المستقبل، واعتبر ضربة ذلك الطّفل الّتي أصابت الكرسيّ تمرّداً وسوء تربية والخ.....؟

الجواب: لأنّ أبي مسؤول وغني، وذلك الشّخص عامل نظافة وفقير.

عمر

دمشق

١٥/٥/٢٠٠٨م.

لقد اضطررت لمجالسة محمد والعمل معه، ربّما لأنّني لم أعد أشتهي الوقوع في المشكلات؛ حتّى وإن كانت كفّة الحقّ ترجح لي، أو ربّما لأنّي في أمس الحاجة إلى العمل بعد إعفائي من وظيفتي.

آن لي أن أعلن هزيمتي أمام الزّمن، وأنسى عمر المتغطرس بكبريائه، والتّعصب لرأيه، وأرفع الرّاية البيضاء حتّى وإن علمتُ بأنّ النّاس سيلطّخونها بالسّواد.

لا أعلم كيف مرّ العمر، لكنّه مرّ بسرعة حتّى أنّه لم يفسح لي المجال لأعيش طفولتي وشبابي كما ينبغي؛ مرّت علينا طفولة تفتّتُ الحجر من قساوتها، وعشنا الحرب طيلة فترة شبابنا، وها نحن الآن في ليل غربة حالكةٍ ننتظر شروق شمس العودة .

أتمنى أن أعشق، وأسرق من الزمن لحظات أقضيها بكنف محبوبتي، وأن أجلس مع النّاس ضاحكاً فرحاً، آه من كبر

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

الرّوح، كم من ندبة في صدري لو فسحتُ الطّريق لها لامتلأت ثيابي دموعاً!

يقولون إنّ السّعادة في البساطة، وإنّ البسطاء دائما سعداء، إنّهم كاذبون والّذي قال تلك الجملة كان يشعر بجزء من تأنيب الضّمير تجاه أحزان البسطاء، فأراد تبرئة نفسه.

البسطاء راضون بقسمتهم في هذه الدنيا، وهذا يمنحهم قسطاً من السّعادة، لا سعادة كاملة، لكن حين يغمضون أعينهم ويفتحونها يجدون أنّ العمر قد مرّ بهم مسرعاً دون أن يعيشوا حياتهم كما ينبغي، فيعزف ناي قلبهم معزوفات لو سمعتها الجبال لبكت من حزنها.

سئمت من كلّ شيء، أريد أن أحكي بعيوني قصة لوسادتي يلتصق خدي بها.

دخلت زينب إلى غرفتي دون أن تطرق الباب، وهذه المرّة الأولى الّتي تفعلها، فقالت: أعتذر، نسيت ان أطرق الباب.

نظرت إليها فتفاجَأتْ بدموعي، ووضعت كوب الشّاي على الأرض ثمّ جلست بجانب رأسي قائلة: ما بك؟ أرجوك قل لي، لم تعد قدماي تحملني.

ازدادت دموعي، فأجهشتْ زينب بالبكاء.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت لها: إنّني أدفع ضريبة التّعامل بجديّة مع الحياة، صدقيني لا أدفعها من طيب نفسي، بل تحت جلدِ السّياط.

عانقتني زينب ودموعها تقطر على كتفي، فقالت: اصبر عسى أن يأتي ما يجبر قلوبنا.

قلت: أتذكرين شقاء طفولتنا، وزهد شبابنا، أنا سئمت يازينب، كلّ يوم أرى الشّمس مشنقة تلتفّ حول عنقي، وعندما تحين لحظة الموت يأتي اللّيل ويفكّ الحبل من حوله، أتمنى أن يكون لدي من يشعرني بالاهتمام.

ضمتني زينب إلى صدرها بقوة، فقلت بيني وبين نفسي: ليت الحياة كلّها إناث، ما أحنّ قلب زينب، تنسى ما فعلته بها، وتبكي لأنّي أبكي، وتمسح دموعي بطرف ثوبها، لو كان البشر كلّهم زينب لما كان للحزن وجود.

وضعت رأسي على الوسادة مجدداً، فبدأت زينب تمسح جبيني وشعري بكفيها، كان شعوراً غريباً بالنّسبة لي، ربّما كانت تستردّ طفولتي وشبابي في هذه اللّمسات.

ذو الفقار

بغداد

٢٠٠٨/٦/١٣م.

هناك مثل إفريقيّ محتواه " تستطيع أن تنتشل الإنسان إذا وقع في عمق المستنقع، لكنّك لا تستطيع أن تنتشل المستنقع إذا وقع في عمق الإنسان"

ربما ينطوي هذا المثل علينا نحن العراقيين، فحين أوقعونا في مستنقع الحرب الأهليّة استطاع البعض انتشال ذاته، ومغادرة البلاد، أو اجتناب الحرب، لكن البعض الآخر وقع المستنقع في عمقه، وأصبحت العنصريّة فكراً ومعتقداً في حياته.

مرت أعوامٌ على سقوط بغداد، وعاد بعض المغتربين، وفضّلوا ارتداء ثوب الخوف هنا على ثوب الأمن في البلدان الأخرى، فالإنسان حين يشتدّ به الحنين إلى وطنه لا يبالي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

بأيّ شيء حتّى وإن كان الموت، لكن لا أعلم لمَ لم يعد عمي رعد وعائلته إلى بغداد؛ ليطفئوا نار حنينهم.

الآن يجب أن أتقدّم بكلّ عبارات الشّكر والامتنان، لعمّي رعد، وذلك أجراً على صفعته لي، وقد مرّ أكثر من عامين عليها، علمت الآن لمَ قام بذلك الفعل، كان يريد أن ينتشلنا أنا وعمر من المستنقع.

اشتقت لعمر، ولمشاجرتي معه، واشتقت لزينب الّتي كنّا نلعب معها، والّتي وعدني والدي أن يزوجني إيّاها ذات يوم، لكن القدر لم يمنحه الحقّ ليفي بوعده، ولم يمنحني تنفيذه بعد أن مات.

صفحات قديمة قد طواها الزّمن، لكن الذّاكرة تحاول فتحها باستمرار كي تطمئنّ بأنّ هناك شيئاً جميلاً شهدناه في هذه الحياة.

تسألني زوجتي بعد أن رأت النّاس تعود إلى منازلها: أين سنسكن إن عاد صاحب هذا المنزل؟!

سؤال يستدعي التفكير، ترى أين سنسكن؟! في منزل والدي الّذي بالكاد يسع أمي وإخوتي، أم أستأجر، لكنّي بالكاد أستطيع أن أحصل على دخل يومي لي، كما أنّ لدي أطفال

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

صغار وأجسادهم تتطلّب حاجات كثيرة، وفكرة أن استقل بمنزل خاصّ بي مستحيلة.

لو شاء ربي أن يهبني حياة جديدة، أو أن يعود بي إلى الوراء قليلاً؛ لرفضت فكرة الإنجاب مادامت هناك حروب، ولو كنت أضمن قدرتي على إكمال الحياة دون امرأة _ أثناء الحرب _ لرفضت فكرة الزّواج أيضاً .

تلك الحرب الظّالمة تركت في أنفسنا وجعاً مزمناً، ووضعت بين العراق والتّطور جبالاً لا يمكن تجاوزها أو إزالتها.

لقد قتلَتْ كلّ شيء جميل، فأصبح العراق لا يعرف إلا الحزن حتّى في أشعاره ومسلسلاته، وطربه.

بعد أن كنّا نلامس سقف السّماء غرنا في الأرض، وقُسّمنا إلى طبقتين:

طبقة غنيّة تشمل كلّ قائد شارك بهذه الحرب صغيراً أو كبيراً، وتجار الدّماء، واللّصوص، وطبقة فقيرة تشمل النّاس البسطاء والكادحين، ومعظم الجنود الّذين يدافعون عن أصحاب الطّبقة الأولى على الجبهات من كلّ الأطراف.

سافرت عقولك وكفاءاتك يا عراق، منهم من قُتل، ومنهم من ترك البلاد دون عودة، فخلفت حرب البنادق حرباً جديدة أقسى

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

منها؛ رغم أنّها ناتجة عنها، الآن أدركت لِمِ كان والدي يقول: أخطر حرب هي الّتي لا تستعمل فيها البنادق.

في بداية اجتياح القوات الأمريكيّة لبغداد هُدمت منازل كثيرة بسبب القصف، فكنت أقول لوالدي: لقد هُدم منزل فلان و...

كان يردّ عليّ: المنازل حجارة يا ولدي، وستعمَر، لكن النّفوس الّتي هُدمت من سيعمّرها.

لو كان حيّاً لأخبرته بأنّه مخطأ، فالمنازل أيضا لم تعمر، لقد هُدم كلّ شيء.

محمد

دمشق

٢٠٠٨/٧/١م.

كان من المفترض أن أصدر روايتي الأولى في مثل هذا اليوم بحسب ما خطّطت له، لكنّي تراجعت في الكتابة قليلاً بسبب تراكم الأعمال عليّ؛ بعد أن أصبحت مكلّفاً بقيادة السيّارة، والتّوزيع على المكتبات في دمشق وريفها بمساعدة عمر وأخي أحمد.

كان العمل متعباً ومشغلاً لوقتي في البداية، لكنّي نظّمت خطّة أوفق بها بين التّدريس، والعمل، والراحة؛ وفي أوقات راحتي كنت أتكلّم مع زينب تارة، وأكتب تارة أأخر، وكلّي حماس لإنهاء الرواية، فأنا أرى أنّها ستحسم مصيري مع زينب، فقد

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كتبتُ قصتي الحقيقيةٍ معها، ومتيقن أنّ عمّي رعد سيقرؤها وسيقرّر المصير حينها، وأرجو أن تكون النّتائج إيجابيّة.

هناك توافق رهيب بين الحبّ والعمل، فحين ينتهي الحبّ بالزّواج ينسى المرء كلّ العوائق والحواجز الّتي حالت بينه وبين محبوبته، وحين يتقاضى أجر العمل ينسى كلّ التّعب الّذي مرّ به.

أمّا عنّي فقد جرّبت لذّة تقاضي الأجر بعد التّعب (راتبي من المدرسة، وأجر عملي من أبي وعمّي رعد) لكنّي لم أجرب لذّة الزّواج من محبوبتي، وأتحمّل قلّة اللّقاء والكلام، وكثرة التّفكير السلبيّ تجاه موقف عمّي رعد من أجل أن أحظى بلذّة الزّواج من زينب .

بعد أن أصبحت السّاعة الثّالثة عصراً ذهبت للعمل، أنا وعمر وأحمد، وما أثار انتباهي أنّ عمر قد لان قلبه عليّ، وعلى أخته، وأصبح يمازحني في بعض الأحيان، وعلى الرّغم من هذا كلّه لم أوحِ له أنّي مازلت أريد زينب خوفاً من أن تكون ليونة قلبه مكراً.

أوجعني قلبي عليه، كان كلّما رأى نخلة على الطّريق يتأوّه على نخل بغداد، وكلّما فتَح كتاباً وعلم بأنّ الكاتب عراقي

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

يبتسم ويقول لي: إنّهم عظماء العراق، كلماتهم كالعطور، كان معتزّاً كثيراً بوطنه، ومحبّا له، ومعظم حديثه حوله، رغم سنوات البعد عنه.

قلت له: ظننتك قد نسيت.

قال: لا ينسى الإنسان من كان يعطيه الجمال والحنان، والدفء والخ...

رددت عليه: هنا يوجد جمالٌ ودفءٌ وكلّ ما ذكرت، علامَ تحتجّ ياعمر؟

قال: الوطن كالأمّ يا محمد، فأنت تشعر بما ذكرت لأنّك في حضن أمك، أمّا أنا كيف سأشعر وقد أنجبتني بغداد! ثمّ نظر من النّافذة فرأى أطفالاً صغاراً يحملون عصاً، ويصوبونها نحو بعضهم على أنّها بندقيّات ويلعبون،

فقد كانت القرية صغيرة وتسمح للأطفال باللّعب في الشّوارع، فأخذ نفساً طويلاً وابتسم، ثمّ قال لي ولأخي: أتعرفان ما هذه اللّعبة؟

نظرنا أنا وأخي إلى بعضنا البعض، ولم نستطع إخفاء ضحكتنا ، فأكمل حديثه قائلاً: هذه اللّعبة اسمها الحرب، كنّا نجتمع في ساحة الحيّ، ونتقسّم إلى فرقتين، ونصنع بندقيّات

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

من الخشب والفلّين، ونلعبها، فنطلق النّار المزيّف على بعضنا بغزارةٍ، ومن نظنّ أنّه أُصيبَ برصاصاتنا الوهميّة يتظاهرُ بالموت حَتّى تنتهي اللّعبة، ونعود لنعيش بسلام، لكن أتى يومٌ وأصبحت البندقيّات حقيقيّةً، ومن يُصاب

يموت ولا يعود، لا يعود أبداً، الله على زمننا الجميل، وياحسرتي على حاضرنا الأليم، ومستقبلنا المجهول.

كان على وشك أن يذرف دموعه، فأشعلت له الموسيقى وبدأنا نصفّق أنا وأحمد ونهزّ بأكتافنا حتّى نغيّر جو الكآبة والحزن، فابتسم وشاركَنا ما نفعله.

عندما انتهينا من العمل اشتريت زجاجة عطر نسائيّة كي أرسلها مع والدتي لزينب، وخبأتها كي لا يراها عمر، وأخي، وعاد كلّ منا إلى منزله ، كانت السّاعة الثّامنة مساءً عندما دخلت المنزل، وجدت عند البوابة أحذية كثيرة، وسمعت صوت أمّي في المطبخ، ذهبتُ لأسألها من عندنا؟ فوجدت زينب معها في المطبخ، وقد دخلتُ عليهما دون استئذان، نظرت إلى زينب، كان نظراتها الممزوجة الحبّ والخجل تعطي لعينيها بريقاً ساحراً، والخطّ المتكوّن في شعرها من الأمام طريق النّجاة من هذا العالم، همّت جوارحي بعناقها،

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

لكنّي منعتها بسبب وجود والدتي، رغم أنّها تعلم بحبّنا ونحن الاثنين نعلم أنّها تعلم، لكن العناق مرفوض في دستور الكبار.

تظاهرتُ بأني أغسل وجهي، وأردت أن أكلم زينب، لكن الخجل منعنا من الكلام أمام والدتي فقلت: أمّي إنّ أبي يندده لكِ أذهبي بسرعة، ولمّا خرجت التفتُ نحو زينب فلم أستطع منع نفسي هذه المرة من عناقها، لقد عانقتها بكلّ ما أوتيت من حنين، ووضعت رأسي المبلّل بالماء على صدرها، حتّى ابتلت كنزتها الحمراء، كانت تلتقط أنفاسها بسرعة وتدفعني لأبتعد عنها وكأنّ جزءاً منها يُطالب بعناقي، والآخر يرفض خوفاً من قدوم والدتي، وبعد أن ترجتني لأبتعد عنها ابتعدت، وقلت لها: لو ذُبحت الآن لا أبالي، ثمّ أخرجتُ من جيبي زجاجة العطر وأعطيتها لزينب، فسمعنا صوت فتح الباب، قالت: لا أملك أجيابا ـ في بنطالي، خذها وأخرج بسرعة أتت والدتك.

لم استجب لطلبها وبقيت واقفاً أمامها، وعندما اقتربت والدتي أكثر وضعَتْ الزّجاجة بين نهديها الكبيرين، ثمّ دخلت والدتي قائلة: أيّها الكاذب، لا أحد يندده لي، اذهب واجلس مع الرجال.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

خرجتُ ووقفت تحت نافذة المطبخ قليلاً، كانت زينب تحاول إخفاء الماء من على صدرها، لكنّها فشلت، فسألتها أمّي: لماذا كنزتك مبلّلة بالماء.

أجابت: أثناء محاولتي تنزيل الأكواب من الرّف العلوي، كان هناك كوباً مليئا بالماء فسقط على صدري.

كم تمنيت أن أكون تلك الزّجاجة، وأختبئ في صدر زينب إلى الأبد، ربّما كانت تلك الزجاجة بارة لوالديها، وخاتمة لأعمال الخير كلّها حتّى نزلت هذه المنزلة الرفيعة، هنيئا لها.

كانت ساقاي ترتجفان بشدّة، وأعيد مشهد العناق في ذاكرتي حتّى يبقى محفوظاً لأسترجعه كلّما داهمني الحنين، شعرت وكأنّني أعانق الجنة.

دخلت غرفتي وغيّرت ثيابي، ثمّ دخلت أمّي وبدأت توبخني على بقائي مع زينب في المطبخ بمفردنا، وقالت: نحن لم ننته من المشكلة القديمة، أتريد أن تضيف علينا مشاكل جديدة؟ ماذا لو خرجت نبيلة ورأتكما، قل لي ماذا دار بينكما؟!

أقسمت لها بأغلظِ الأيمان أنّي كنت أغسل وجهي، ولم أتحدّث إليها أبداً، لكنّها لم تصدقني وخرجت من الغرفة بعد أن طالبتني بالذّهاب والجلوس مع عمّي رعد وزوجته.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

دخلت الغرفة وسلّمت عليهم، ثمّ تبادلنا الحديث حول العمل، والمكتبات الّتي وزّعنا لها، وحال عمر في العمل.

فقال عمي رعد: لديّ طلب منك يا محمد.

قلت: تفضّل ياعم، طلبك مجاب.

قال: دع عمر يوزّع لهم، كي يحتكّ بالنّاس، واصطحبه معك في بعض سهرات علّه يُشفى من وحدته، ولا تخبره بما قلته لك.

قلت: سأفعل بكلّ سرور.

دخلت والدتي وزينب حاملين أكواب الشّاي، فاستأذنت بالذّهاب إلى غرفتي بذريعةِ التعب، وقد قمت بذلك الفعل كي لا تفضحنا نظراتنا أنا وزينب؛ فلا يسمح لها والدها بالمجيء إلينا مجدداً.

عدت إلى غرفتي وجلست خلف طاولتي أكتب في روايتي، وأظنّ أنّ هذه هي اللّمسات الأخيرة الّتي أضعها بها.

زينب

دمشق

٢٠٠٨/٧/١م.

كلّ الّذين تخلّو حياتهم من العشق يعيشون بتعاسة، ولا يجدون ركناً آمناً يأوون إليه بعد صراعهم مع أيامهم، ولا يجدون كتفاً يسندون عليها رؤوسهم بعد تعبهم، ولا يستمتعون بلذّة الحياة، وإن عمر من أولئك الّذين خلت حياتهم من العشق، فأراه يقضي حياته بالعمل والتفكير فيه، والمعضلات الّتط تواجهه، والنّوم، أمّا أنا فتتراكم عليّ الأفكار الّتي تجذبني نحو الحزن، وتوشك أن تغلبني لولا أنّني أطالب الدّماغ بتثبيت صورة محمد في ذهني، فترجح الكفّة لي، وانتصر عليها، فالحبّ منبع الدفء، وماء للهيب الصّدر، وشفاء لمرضى القلوب، فحين نعشق نستطيع القول بأن الحياة الجميلة قد بدأت.

بعد أن عدنا إلى منزلنا دخلت غرفتي وخلعت كنزتي الحمراء الّتي بلّلها محمد بقطرات المياه المتساقطة من شعره،

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

فشممتها وعانقتها، وعاهدت نفسي بألّا أغسلها لأحتفظ برائحة محمد فيها، ثمّ أخرجتُ زجاجة العطر، وتعطّرت بها.

كأنّ محمد أعطاني زجاجتين من العطر،

زجاجة لروحي، وقد سكب عطرها دفعة واحدة على كنزتي، والثّانية لجسدي أتعطّر بها الآن .

ذلك المجنون كيف تجرّأ وعانقني، وهل يعقل أنّ والدته لم تدر بذلك!

نادمة لأنّي لم أعانقه، أنا أيضا كنت بحاجة إلى الدواء، لكن لا أعلم لماذا لم أتجرّأ، ودفعته عنّي؛ ربّما لأنّ عناقاً واحداً لا يكفي، أو ربّما لأنّي لا أستطيع أن أتناول ملعقة من العسل كي لا أستلذ بطعمها، وأحرم منها فيما بعد.

خطر لي أن أكتب رسالة ورقيّة لمحمد، وأحتفظ بها، ثمّ أعطيه إيّاها في ليلة زفافنا الأولى.

كتبت التاريخ في أعلى الصّفحة، ولم أكتبه أرقاماً، بل كتبت: يوم عناق محمد لي في منزلهم، ثمّ بدأت بسطر جديد وأكملت: حبيبي محمد : كم من المرات يجب أن أُعانقكَ بها حتّى أكون عادلة مع حنيني!

وكم من قبلة يجب أن أطبعها على شفاهكَ حتى أروي ظمأي!

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

حبيبي محمد: كيف أُشفى من حبك!

قد جبت الأرض بحثاً عن دواء لقلبي؛ ولم أجده إلّا عندك، وتأملت اللِوحات الفسيفسائيّة لوحةً لوحةً، ولم أر أجمل من عينيكَ، وبحثت بين أكوام الحرير، وخيوط الشمس، وسنابل القمح ولم أجد أجمل من شعرك، وسمعت الموسيقى كلّها فلم أجد أجمل من ناي فمك، تعجبني رجولتك واتزانك أمام الملأ، وطفولتك وشقاوتك أمامي.

أنا يا سيدي تجردت من كلّ مبدأ يحاول إبعادي عنكَ، وألغيت كلّ قانون يطالبني بالتّوقف عن الاقتراب منك، وآن لي أن أعلن مشاعري نحوكَ عشقا مقدساً يملأ الأرض سلاماً وحبّاً إن فاض من جسدي وروحي .

حبيبي محمد: بعد أن علمتُ أنّك تجيد استخدام القلم، جعلت جسدي لك ورقاً، أكتب أينما شئت فيه، وكيف شئت،

وكتبت في الخاتمة :

ستبقى رسالتي معلّقة لأنّي لا أستطيع قول محتواها لك الآن، لكني سأقوله لك _ إن تمّ زواجنا _ في ليلة زفافنا.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

طويت الورقة، وغلفتها ثمّ وضعتها بأحد شقوق جدار غرفتي مع زجاجة العطر، كي لا يراها أحد، وفتحت هاتفي فوجدت محمد بانتظاري.

قال لي: ما رأيك بما حصل منذ قليل؟

قلت: كما قالت لك أمك، أنت كاذب أذكر أنّك أخبرتنا بذهابك للنّوم بسبب التعب، أراك مستيقظاً!

أرسل لي بعض الإشارات الّتي توحي بأنّه يضحك، وكرّر سؤاله الأول.

أجبت: لم يعجبني، وأرجو ألّا يتكرّر ما حصل، محمد أنت تتصرّف بهمجيّة في الحبّ، وهذا الأمر لا يليق بي وبك، أنا غاضبة الآن وسأخلد للنوم.

أغلقت هاتفي، وارتديت ثياب نومي ثمّ استلقيت على ظهري وقد أصابتني نوبات الضحك الهستيري لثوانٍ على محمد .

لا أعلم لماذا _ نحن الفتيات _ نظهر عكس مشاعرنا في بعض الأحيان، مسكين ذلك الّذي يظنّ أنّه يفهم الأنثى، فالأنثى ذاتها لا تفهم نفسها.

عندما راودني النعاس سمعت صراخاً من غرفة والدي، فذهبت مسرعة إليها، وتبعني عمر لنعرف ماذا حصل.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وجدنا والديّ يتشاجران ويصرخان على بعضهما، فأمسكت بيد أمّي وأخرجتها من الغرفة كي يهدأ أبي ، ورحنا – أنا وعمر – نفتّش عن السبب وكأنّنا محقّقين، في كلّ دقيقة نسأل بعضنا عن ما توصلنا إليه لأنّهما كانا رافضين التّحدث.

وبعد جهد متواصل قالت أمي: إنّ والدكما يريد الذهاب إلى بغداد لزيارتها بعد غد.

فاعترضت وقلت: لا نريد لأحد أن يذهب إن لم نذهب كلّنا، بينما عمر كان يطوف حول والدي ويقول له: خذني معك، أرجوك يا أبي، أنا أدفع تكلفة الطّريق الخ... .

أصرّ والدي على رأيه، فازداد غضب أمّي وذهبت معي لتنام في غرفتي.

قلت لها: لا يجوز أن تُغضبي والدي، وتدعيه بمفرده في الغرفة، أنت تعلمين كم يحبك.

قالت: من الصواب ألّا أبقى معه الآن، فهو غاضب جداً بسبب ما قلته، سأرضيه يوم غد، لكن مصيبة إن بقي متشبثاً برأيه.

قلت لها: من أخبر والدي بأنّ الوضع مستقر في بغداد؟

قالت: إنّه ذو الفقار ابن عباس.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت: المشكلة محلولة، غدا سأتّصل به وأطلب منه أن يخبر والدي بسوء الأوضاع هناك، ومخاطر القدوم إلى بغداد .

ابتسمت أمّ وقالت: هل تمتّين للشّيطان بصلة؟

انهرت ضاحكة وقلت: بداخل كلّ أنثى شيطانٌ ليس كالشّيطان الّذي يتوهّمه البشر، إنّه لا يؤذي أحداً، وهو خطّ الدّفاع الأوّل عنها، والعقل المدبر لما تفعله؛ بعض النّاس يطلقون عليه اسم الكيد.

كانت والدتي تتحسّس الهواء بأنفها، فقالت: من أين لكِ رائحة العطر الزكية هذه؟

تلعثمت في الكلام وأخبرتها أن خالتي ميسون عطرتني بعد أن انتهيت من مساعدتها في جلي الأطباق.

قالت: إنّها زكيّة جداً، سأطلب منها اسم العطر يوم غد.

قلت لها: لا يمكنك فعل ذلك.

تفاجَأت وقالت لمَ؟

قلت: لقد أخبرتني خالتي ميسون أنّها لا تفصح عن اسم عطرها، ولا تحب أن يسألها أحد عن اسمه، وقد عطّرتني لإزالة رائحة المنظّفات القويّة (الكلور) عنّي.

قالت: حسنا لن أسألها، سأنام الآن تصبحين على خير

مراد

دمشق

٢٠٠٨/٧/٢٥م.

قد حقّقنا نجاحاً كبيراً في العمل، لكن لا أعلم لم يريد رعد ترك كلّ شيء والذّهاب في زيارة إلى بغداد !

جلستُ معه في المكتبة وأخبرني أنّه سيذهب وإن أعجبه الوضع سيبقى هناك وسيسحب عائلته من دمشق .

قلت له: إنّ جذور الشجرة تتمدّد في الأرض الخصبة لأنّها توفر لها ما تحتاجه ، فيجب على الإنسان أن يتصرّف مثلها، أتريد أن تترك الحياة، والمال الوفير، وتذهب إلى بغداد الّتي مازالت حربها مشتعلة، وأسعارها غالية، أمرك غريب ؟!

ردّ رعد: المال لا يعني الحياة، والحياة الآمنة لا تعني السّعادة، أين الأمان والحنين يسرق وينهب تفكيري، والسهر يسطو على نومي، والبعد يغتصب قلبي على مرأى زوجتي وأولادي؟

إنّ بغداد تتمثّل بطيف فتاة جميلة، تداهم منزلي كلّ ليلة، فتسامرني وتغازلني حتى تهيّج مشاعر حبّي، فأنهض

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

لأعانقها وكلّما اقتربت منها خطوة تبتعد بمثلها حتّى تقف عند الباب وتقول لي: أنا بغداد، إن كنت تحبّني حقاً عد إلى العراق، وأنا أريد إثبات حبّي لها.

قلت: نعم إنّ المال لا يعني الحياة، لكنّه يقضي على العديد من المشاكل الّي تواجهك، ويشقّ لك طريقاً نحو السّعادة، لنفترض أنّ المرض داهمك، أو داهم أفراد عائلتك، ولم تجد المال في جيبك؛ كيف ستذهب إلى الطبيب؟!

أو لنفترض أنّك رأيت هنداماً أعجبك في أحد الأسواق، وتمنيت أن تشتريه وترتديه ولا يوجد مال معك، كيف سيكون شعورك؟!

صحيح أنّ الحياة الآمنة لا تعني السّعادة، لكنّها لا تعني الحزن أيضاً، هنا في دمشق لا توجد حرب لذلك لا تخاف حين تنام، ولا تخاف من سقوط المنزل فوق رأسك، هنا لا تخاف إن خرج من المنزل أحد أولادك.

قال رعد: هنا أموت شوقاً.

قلت: حين تخرج روحٌ _ بالشوق _ من الجسد تعود إليه ذات يوم، لكن حين تخرج الرّوح بالحرب لا تعود، فمت من الشوق، ولا تمت من الحرب.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

يا رعد إن عدت مع عائلتك ستحتاج إلى ثلثيّ المبلغ الّذي اختزنه في فترة عملك هنا للمواصلات ولتهيئة منزلك هناك، وما سيتبقى معك لا يكفيك مصروفاً إن بقيت دون عمل لشهرين، وخاصّة أنّ الأسعار مرتفعة هناك، وتذكر بأنّ أولادك أصبحوا في مرحلة الشباب، إنّهم في هذا العمر يحبون أن يلبسوا أجمل الثّياب، ويأكلوا أشهى الطّعام، وأنت لن تملك ما يكفي لسد حاجاتهم.

يا رعد: أنا لم أجد رجلاً مثلك في الشهامة والصدق والوفاء فلا أريد خسارتك أيضاً.

نظر رعد قليلا نحو الأسفل ولم يرد ولو ببنت شفة، فنظرت إليه بعد أن رفع رأسه، وقلت: ماذا قررت؟

قال: أنا أنتظر إشارة من ابن صديقي، وحين يرسلها لي سأعود، أنت لا تشعر بما أشعر.

كان غير مقتنع بما قلته، تركته عله يعيد النظر في قرار العودة. ثمّ جلست في المقهى المجاور للمكتبة، وبدأتُ أفكر بما سيحصل بمحمد بعد عودتهم إلى وطنهم، لقد كنت متأملاً بأن يتزوّج من زينب، رغم معارضة رعد، لكن يبدو أنّ الآمال لن تتحقّق، ولن يكون لمحمد نصيب.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

مسكينٌ يا محمد فرعد ينتظر رسالة من ابن صديقه حتّى يعود، وإن عاد وأخذ عائلته معه ستبقى تلك البغداديّة ذكرى مؤلمة تنهار كلّما ذكرتها، ولا ينسى المرء من أحب.

ربما لو ألقيت هذا الكلام على مسامع محمد لمُزّقَت أذناه من هوله، وأحْرق روايته، فأنا أعتقد أن مضمونها حول الحبّ، وموقف الأهل منه ليقنع رعد بالموافقة على زواجه من ابنته، وهو متمسّك بالأمل بسبب وجودهم هنا، لكنّه سينقطع إن عادوا إلى بغداد.

أنا لم أر حرفا واحداً من رواية محمد، لذلك سأجلس معه بعد قليل، وسأطلب منه أن يخبرني عن موضوع الرواية وهدفها لعلّني أساعده إن كان ما أعتقده صحيحاً.

عدت إلى المنزل بعد ساعة من جلوسي في المقهى، وتناولت الغداء، ثمّ جلست مع ميسون وأخبرتها بالحديث الّذي دار بيني وبين رعد، فاقترَحَتْ أن تخبر نبيلة وتطلب منها إقناعه بعدم الذهاب، قلت لها : حاولي، لكن لا أظنّ أنّه سيتراجع عن قراره.

وبعد أن أصبحت السّاعة الحادية عشر ونامت ميسون وأحمد، ذهبت إلى غرفة محمد فوجدته يكتب.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت له: أترك الكتابة قليلاً وتعال لنجلس على الشّرفة.

جلسنا على الشّرفة فقلت له: أنا صديقك قبل أن أكون والدك، ولن أجبرك على فتح الدفتر الّذي تكتب عليه حتّى أعلم مضمون الرواية، أريد منك أن تخبرني عن المضمون والهدف.

قال محمد: إنّ مضمونها قصّة حبّ بين شاب وفتاة.

سألته: ومن هما؟

أأجا: شخصيّتان خياليّتان .

نظرت في عينيه فظهر لي أنّه يكذب، سألته: لمَ الكذب يا محمد؟

أجاب: لا أكذب يا أبي.

قلت: اجلب الدفتر، سأقرأ بنفسي وأعلم.

قال: سأتكلّم دون أن أجلب لك الدفتر، لكن لن أسامحك طيلة حياتي إن منعتني من نشرها.

قلت: تكلم ولا تخف، أنا هنا لأساعدك.

قال: مضمونها أنا وزينب.

قلت: كنت أظنّ ذلك، وأردت أن أتأكّد، لكن ما الهدف يا بني؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أأجا: لقد كتبت قصتنا الحقيقية دون نقصان، ومتأكد بأنّ عمي رعد سيقرأها، وسيعلم بمدى حبنا لبعض، ويعلم بوقوفه حاجزاً بين سعادة شخصين، وأرجو أن يلين قلبه ويوافق على زواجنا.

قلت: وكم تستغرق لإنهائها؟

قال: في غصون عشرة أيام ستكون بين كفي عمي رعد.

قلت له: ربما لن يحدث ذلك، فعمّك رعد سيذهب إلى بغداد، وهو الآن ينتظر إشارة من أحد الأشخاص هناك، فإن ذهب وأعجبه الوضع سيأخذ عائلته، ويستقرّون هناك .

تفاجأ محمد مما قلته، وقال: غريب، لم تخبرني زينب، ولا حتّى عمر.

سألته: أما زلت تتكلّم مع زينب؟

قال : نعم، مازلت أتكلم معها.

قلت: عجّل في إنهاء الرواية قبل أن يعود عمّك رعد، ربّما سيتحقّق ما تفكر به.

تنهّد وقال: آه يا أبي، لو علم عمّي رعد بالعذاب الّذي خلقه في قلبي وقلب زينب لما سامح نفسه أبداً، لا أعلم كيف يقف الإنسان بين سعادة شخصين، ويضع رأسه على وسادته

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وينام، وكأنّ شيئا لم يكن، وأكمل حديثه قائلا: أبي بما أنّك أصبحت تعلم بمخطّطي أريد منك طلباً واحداً.

سألته: وما هو؟

أجاب: حين تصبح الرواية بيد عمي رعد ابقَ ملازما له، فأنا أخاف أن تكون النتائج عكس ما أظن ويحصل لزينب مكروه.

قلت: سأفعل ذلك، لكن..... لا يمكنني أن أبقى ملازما له دائماً، وإن أراد أن ينزل بزينب مكروه سيفعل بعد أن أغادر

قال: أريد ذلك فقط في الأثناء الّتي يعلم بحبي لها، وبما حصل بيننا، فإن كانت ردوده إيجابيّة سأتقدم لخطبتها مجدداً....

قاطعته وسألته: وإن كانت سلبيّة؟

أجاب: لم يبقَ عندي سوى حلّ واحد حينها، سأخطف زينب ونغادر الديار.

قلت: كأنّك متأثرٌ بأفلام العشق الّتي تشاهدها، إيّاك أن تفكر بهذا.

قال: ألم تقل لي أخبرني الحقيقة، هذا ما أريد فعله.

قلت: آمل ألا يحدث ذلك، بإمكانك العودة إلى غرفتك.

عاد محمد إلى غرفته، فبدأت أعيد ما قاله في ذاكرتي، وأحاول أن أجد حلّاً لمشكلته.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

إنّ الحب يقود إلى الجنون ، إن لم يوافق رعد سأتوسّل إليه، فسعادة ولدي تستحق أن أتنازل عن كبريائي وأقف أمام رعد كالمتسوّل، لكنّي لا أريد مالاً، أريد شيئاً من الرّحمة لأب يرى ابنه في حفرة العذاب ولا يستطيع انتشاله منها .

محمد

دمشق

٢٠٠٨/٨/٣م.

لم أنم بانتظام منذ اللّيلة الّتي أخبرني بها والدي أن عمّي رعد وعائلته سيعودون إلى العراق، فنهشت الأفكار من رأسي ما نهشته، وألقت بي في يم اللّيل الحزين، نعم إن اللّيل مثل البحر، سيكون جميلاً حين تختاره للسباحة والتنزه، لكن حين يختارك بأمواجه الغاضبة سيكون قاسياً، وهذه المرة اختارني.

لم يكن لدي سوى قلمي سفينة النّجاة من الموج الغضب، وأظنّ أنّي سأنجو، فقد أنهيت روايتي اليوم .

إنّها السّاعة الثّانية بعد منتصف اللّيل، كلّ شيء هادئ إلّا قلبي، ليت زينب كانت مستيقظة علّها تسكنه بمراهم رسائلها، وتضمد جراحه بشاش صوتها.

لقد قُطعت كلّ السّبل المؤديّة إلى النّوم، فسلكت طريقاً كان مكتوباً في بدايته: طريق التّفكير المشتّت.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

كيف تنام زينب الآن، وماذا ترى في أحلامها، هل يعقل أن القدر أخذ نسخة من روحي وذهب بها إلى أحلام زينب، ليته أخذ جسدي وروحي إليها.

لا يمكن أن أعيش دون زينب، ولا أعلم كيف كنت أعيش، أحبّك يازينب وهذا الحبّ يسعدني ويؤلمني؛ يسعدني لأنّي وجدت شخصاً يشبهني؛ يفرح لفرحي، ويحزن لحزني، شخصاً أعتبره أنا الثّاني، ولا يمكنني أن أعتبر زينب حرة بنفسها أو أنّي حرّ بنفسي، كلّ منا يملكه الآخر.

زينب: لن تكوني لغيري، لأنّي لن أوفر وسيلة في الدنيا إلّا وسأفعلها من أجل أن أكون معك، والآن أمشي في طريق الخير لتكوني لي، ولم تبق لي غير محاولة إصدار الرواية، فإن فشلت سألجأ لطريق الشّر وأتزوّجك عنوة عن كلّ من لا يريد، حتّى وإن كان أباكِ، أنتِ خُلقتِ لي، وأنا خُلقتُ لكِ، وإن فشلت محاولاتي في كلتا الطريقين سأغادر الدّنيا غير آسف، فأنا أفضّل الموت مرّة واحدة بطريقة رحيمة على الموت آلاف المرّات.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

نحن نظنّ أنّ كلّ من يتنفّس حيّا، لكن هذا غير صحيح، فالعاشق الّذي لم يتزوّج محبوبته ميت، والفقير الّذي لا يملك ثمن الطّعام ميت، والمهاجر من وطنه قسراً ميت.

أرجوك أيّها الإله العظيم: إن لم تكن زينب لي فلا تجعلها لغيري.

بقيت الأفكار تراودني حتّى استيقظ والدي، ولما استيقظ قلت له: لقد أنهيت الرواية، وسأعطيها لعمّي رعد كي يطبعها بنفسه، أما الآن فسأنام.

قال والدي: والمدرسة؟

قلت: لقد أرسلت إلى المدير وطلبت منه إجازة، ولن أذهب إلى العمل أيضاً.

قال: حسناً.

لقد ضبطت المنبه على السّاعة الثّالثة، حيث يبدأ دوام عمّي رعد، وخلدت إلى النّوم.

وعندما استيقظت كانت السّاعة الثّانية ونصف، ارتديت ثيابي وذهبت إلى المكتبة حاملاً حقيبتي الّتي توجد فيها الرواية، ولما وصلت قلت لأبي لا تذهب قبل أن أعطيها لعمّي رعد ويقرأ لمحة عنها.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وافق أبي، وعندما قَدم عمّي رعد صافحته وقلت له: لقد أنهيت الرواية، وأنا في انتظارك كي تطبع بعض النّسخ منها، ومن ثمّ أعطي لوزارة الثّقافة نسخة كي أحتفظ بها هناك.

قال: جميل يا محمد، صدقني أنتظرها بفارغ الصبر، على ماذا كتبتها؟

قلت: على الدفتر، وأخرجت الدّفتر من حقيبتي.

قال: سأقرأها أوّلاً، ثمّ أبدأ بكتابتها على الحاسوب كي نطبعها.

قلت: كما تشاء.

فتح عمي رعد الدفتر وقرأ الإهداء، كان مضمونه :

علميني كيف أصبح ساحراً مثلكِ،

علميني كيف أجعل من يحبني يسهر اللّيالي، ويكتب نصوص الغزل في عينيّ، ويحدّق بصورتي ويكتشف أشياء بي لا أعلمها عنّي!

علميني كيف أبدّل الإنسان من حال لآخر بكلمة منّي، أو برمشة من عيني!

حين أحدث النّاس عنك يرونك كأيّ فتاة أخرى، أتراهم لا يجيدون النظر، أم أنّني متفوّق فيه فوق حدود البشر، أم أنّي أراكِ بقلبي.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

ما أجمل اتساع عينيكِ، وضيق شفتيكِ، وتفاح وجنتيك، والشّامة الّتي على خدك الأيسر؛ إنّها تشبه شامنا كثيراً .

إلى أجمل نخلات العراق،

إلى تلك العيون الّتي تشبه دجلة والفرات

إلى سواد شعرها

إلى حمرة شفتيها، ولؤلؤ أسنانها

إلى كلّها

إن كان جسدك قبراً فيا أهلا بالموت، وإن كانت عيناكِ بحراً فما أجمل الغرق، وإن كانا ذراعاكَ قيوداً فتبّاً للحريّة

إلى تلك البغداديّة السّمراء، أهديك روايتي فإن لم يسمح القدر لنا أن يتم زواجنا بعدها سنصبح أمواتاً على قيد الحياة، وننتظر الموت كي نعيش حياتنا هناك.

إلى أبيها: ألم يحن قلبك بعد؟! والله لو كان حجرا لتحول إلى رماد.

شعرت بالخوف من عمّي رعد عندما اضمحلت ابتسامته وهو يقرأ الإهداء، فأغلق الدفتر وقال : حسنا سأقرأها أولاً، وأعدك بأن أنهي قراءتها اليوم، بإمكانكما الذّهاب إن أردتما ذلك.

قال أبي : حسنا سنذهب.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

خرجنا من المكتبة، فذهب أبي إلى صديقه في المحل المقابل للمكتبة وقال له: من فضلك، إن أغلق رعد المكتبة، أو ذهب منها أخبرني على الفور، وعدنا إلى المنزل.

حين وصلت أرسلت لزينب وقلت لها: لقد أنهيت الرواية، وهي الآن بين يدي أبيكِ، فإن عاد إلى المنزل قبل موعد عودته احكمي إغلاق باب غرفتك، ولا تفتحي له.

شعرت زينب بالخوف، لكن لم يكن باستطاعتها أن تفعل سوى الّذي قلته لها، وقالت ربما هذا اليوم هو آخر يوم لي في هذه الدنيا.

قلت لها: لن أسمح بذلك مهما حصل، والآن أنا ذاهب لأجلس بالقرب من المكتبة، فإن رأيت أباكِ عائداً إلى المنزل سأصطدم معه.

قالت: إنّه أبي يا محمد، إياك أن يبدر منك ما يزعجه.

قلت لها: حسناً، لكنّي لن أتقيد بكلامها، حتّى وإن كان أباها، وسأقاتل كلّ من يقف في طريقي حتّى وإن كان والديّ.

ذهبت وجلست مقابل المكتبة؛ في محل صديق والدي بعد أن أخبرته أنّ أبي قد أرسلني.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وبعد قليل فتح عمي رعد باب المكتبة ووقف قليلاً، ظننت أنّه سيذهب إلى منزله ليعاقب زينب، لكنه عاد إلى الداخل وأخرج وعاءً كبيراً من الماء وبدأ يرشه أمام المكتبة.

قلت في نفسي : ربّما لم يقرأها.

فأخرج كرسيّاً وجلس على الرصيف، وبيده الدفتر الّذي أعطيته إياه، ويظهر أنّه قد اجتاز نصف الرواية.

كان مبتسماًً، ولا يظهر عليه الغضب، ففرحت كثيراً، وبقيت أراقبه كما يراقب العاشق وجه معشوقته.

وبعد قليل أتى عمر، فدخلا إلى المكتبة، وخرج عمّي رعد منها واتجه نحو منزله.

أرسلت لزينب : إنّ أباكِ في طريق العودة، سأتبعه حتّى يدخل المنزل.

وحين وصل أخبرتني زينب بذلك.

قلت لها: ألم ينادِكِ؟

أجابت: لا، لقد جلس حول البحرة يقرأ كتاباً.

قلت لها: ومالون الغلاف؟

قالت: أسود.

قلت: هذه روايتي، هل هو غاضب؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أجابت: لا، إنّه يبتسم، إن كانت هذه روايتك فتأمّل خيراً، إنّ أبي ضحك ضحكة طويلة الآن .

فرحت كثيراً، وعدت إلى المنزل، ولما وصلت كانت السّاعة الثّامنة مساءً، فقال أبي: لمَ لا ترد عليّ، لقد اتصلت بك، وأرسلت لك عشرات الرسائل؟

قلت: هل هناك شيء؟

قال: إنّ عمّك رعد اتّصل بي وطلب منّي أن نذهب إلى منزلهم.

قلت: منذ متى؟

أجاب: منذ عشر دقائق، ادخل والبس ثياباً جميلة، فنحن بانتظارك.

رعد

دمشق

٢٠٠٨/٨/٤م.

لقد كنت أعلم أنّ زينب تحبّ محمد وتحادثه، لكنّي لم أكن أعلم أنّي أسبّب لهما كلّ هذا الحزن؛ ربّما لأنّ الإنسان حين يكبر يظنّ أنّ عشق الأولاد غير حقيقيّ.

جلست حول النّافورة، وندهت لنبيلة، وطلبت منها أن تجلس بجانبي، فسألتها: هل تعلمين ما أقرأ؟

أجابت: لا، لكن أظنّ أنّه كتاب يتحدّث عن التّاريخ.

قلت: لا، إنّها رواية محمد، ومن ّثم نظرتُ إلى نافذة غرفة زينب كانت زينب تسترق النّظرات نحوي، فتظاهرت بأنّي لم أرها، وأكملت حديثي مع نبيلة.

قالت: لقد سألت محمد ذات يوم عن عنوان الرواية، أخبرني أنّه سيدعه مفاجأة، ما هو العنوان؟

أجبتها: بغدادية في دمشق.

بدت علامات التعجب على وجه نبيلة، وقالت: ما هذا العنوان؟

قلت : لا يهم العنوان بقدر المضمون.

قالت : وماهو مضمونها.

أجبتها مبتسماً: قصّة الحبّ الّتي نشبت بين محمد وزينب.

اتسعت دائرتي عيني نبيلة وقالت : ماذا؟

فأعدت الجواب لها .

قالت: وما أنت بفاعل؟

قلت: بعد قليل سيأتي مراد وعائلته، وسترين ما سأفعله، صدقيني إنّ حبّاً يدفع بالعاشق إلى كتابة رواية مثل هذه، ويتجرأ ويعطيها لوالد محبوبته من أجل أن يتزوجها يستحق أن يُعطى كلّ ما يطلبه، اذهبي وهيئي نفسك وزينب، فسيأتي مراد وعائلته بعد قليل.

وبعد دقائق طُرق الباب ففتحته، كان القادم مراد وعائلته، أدخلتهم إلى غرفة الضيوف، ومن ثمّ دخلت زينب وأمها.

قلت لزينب: هناك كتاب تركته على الطّاولة بجانب النافورة، اجلبيه لي.

ولمّا جلبته أردت أن أمازحهم فوضعتِ الكتاب في منتصف المجلس وخاطبت محمد بصوت مرتفع: أيحقّ لك أن تكتب هذا يامحمد؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

ارتبك مراد ونبيلة ونظرا إلى بعضهما البعض وملامح وجوههم توحي بالخوف، فنهض محمد وقال بكلّ جرأة: والله لن أتزوّج غير زينب، وليحصل ما سيحصل، أنت تجبرني على السير في طريق الشّر.

اختبأت زينب وراء والدتها وصوت بكائها ملأ الغرفة، ثمّ غادرت المجلس، صرخت لها: زينب زينب لكنّها لم ترد، فانفجرت ضاحكاً وقلت : أمزح معكم، بإمكانكم تحديد موعد الخطبة متى أردتم.

عانقني محمد وقبّل جبيني ويدي ووجنتي، وقبل أباه وأمّه ولولا العيب لقبّل نبيلة أيضاً، كأنّه قد فاز بأعظم فوز، وانتصر أجمل انتصار.

قلت لنبيلة: اذهبي واخبري زينب بما حصل، واجلبيها إلى هنا.

قالت ميسون : انتظري سأذهب معك.

كادت الابتسامة أن تمزق وجنتي محمد فقلت له ضاحكاً : لا تفرح كثيراً، لدي طلب منك.

قال : اطلب غير مخذول يا عمّي.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت : لن أدعك تنشر الرواية، ولن أطبعها لك، فشخصيتي بها كأنّها فرعون، هل يعقل بأنّي كنت أسبّب لكما هذا الألم؟

قال محمد : إن غايتي من الرواية هي أن توافق على زواجنا، فإن وافقت افعل بها ما تشاء، أو اعطني إيّاها كي احتفظ بها ذكرى.

قلت: لا، سأدعها عندي واحتفظ بها لكما.

دخلت زينب ولم تجف دموعها بعد، فقلت لها : تعالي يازينب، والله لن أسمح أن أكون حاجزاً بينك وبين السّعادة وبدأتُ أمسح دموعها بالوشاح الّذي ارتديه على رأسي، ثمّ قلت لها: ألا تسقيننا القهوة من يدكِ؟

نهضت زينب وذهبت إلى المطبخ، فأرادت ميسون أن تتبعها، قلت لها اجلسي يا أم محمد، سنتكلم في شأن هذا الموضوع ويجب أن تكوني معنا، متى تريدون أن تتمّ الخطبة؟

قال محمد: الآن وأمسك هاتفه وقال : سأتصل بأحمد كي يأتي هو والشيخ كي نكتب العقد.

ضحكنا وقلنا له : لم هذه السرعة؟

قلت لمراد: سنكتب العقد في الأسبوع القادم، ما رأيكم؟

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قال مراد: كما تشاء يا رعد، لكن أفضّل أن يتمّ الزّواج في اليوم ذاته.

أجاب محمد: موافق، موافق، كان متلهّفاً بشدّة لأن يتمّ الزّواج.

قلت: حسناً إن كانت زينب وأمها موافقتين فأنا موافق.

قال مراد لي: اتصل بعمر، واطلب منه أن يغلق المكتبة، ويأتي ليشاركنا فرحنا، وقال لمحمد: أما زلت جالساً؟ اذهب واجلب لنا الحلوى بهذه المناسبة.

زينب

دمشق

٢٠٠٨/٨/١٠م.

بقيّ يوم واحد على الزّفاف، ستغني الطّيور طرباً، وترقص الأشجار على إيقاع غنائها، وتحلّق الفراشات فرحاً لنا؛ وسأقف على ناصية الحلم قائلة :صبرتُ ونلتُ.

لم يكن لدي صديقات هنا، كان محمد هو الصديق والحبيب، لقد نصب شراع سفينته وأبحر متحدّياً أمواج العادات، وانطلق إلى شطّ الأمان، حيث أنا هناك، ورغم أنّ رياح أبي كانت معاكسة لشراعه ألا أنّه تابع الإبحار، وغداً سيصل من رحلته الطويلة، وسأزيل عنه تعب السّفر كلّه.

لقد جلب أحمد لنا بطاقات للدخول إلى صالة الأعراس؛ الّتي سنقيم فيها حفلنا، وأخبرنا أن ندعو من نريد، فوزّعناها على

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أصدقاء أبي العراقيين؛ الّذين يقيمون في دمشق، وعلى أبناء الحيّ.

شاءت الأقدار أن يُقام حفل زفافي دون وجود صديقاتي اللّواتي عاهدتهنّ أن أعزمهنّ على حفل زفافي حين كنّا في المدرسة؛ وأتمنى أن يأتيني خبر عنهن، فمنذ مجيئنا إلى دمشق لم أعد أعلم أيّ سماء فوقهنّ، وأيّ أرضٍ تنطوي عليهنّ، ربّما أصبح لديهنّ أولاد، وربّما قد ماتت إحداهن.

كان محمد وعائلته في منزلنا ليلة الأمس، فتمّ كتابة العقد بيننا، وسيتم الحفل والزفاف يوم غد، وقد أحضر لي هاتفاً جديداً، وأخبرنا أنّه لا يمكن أن يشتري منزلاً، فاستأجر شقّة على أطراف دمشق بدلاً من ذلك.

لا أعلم لماذا يظنّ بعض الشّباب أنّ متطلّبات الأنثى منزلاً جديداً، ومالاً وفيراً!

إن الأنثى بحاجة إلى بيت يؤوي قلبها لا جسدها، وشريكاً تكمل معه حياتها دون خوف وقلق، ولا يهم المسكن حتّى وإن كان جرفاً من الصخر.

اقترب اليوم الّذي انتظرته طويلاً، إنّه يوم غد؛ يوم شفاء الرّوح، ولقاء الأحبَّة، وفرح القلب، أكاد لا أصدّق ما يحصل

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

الآن من شدّة فرحي، وأخيراً سأرتدي الفستان الأبيض لك يامحمد، وأصبح مسكنك، سأجلس كلّ مساء، وأعدّ النّجوم الّتي في وجهك، وأشرب أقداح النّبيذ من عينيك ، وأعلن أول أغنية أرسلتها لي نشيداً وطنيّاً أسمعها كلّ صباح، سأذكرك بماضينا الّذي كان مؤلماً؛ بعد أن يصبح مضحكاً، وسأخبرك بأنّ حزن العاشقين مهما كان كبيرا يُمحى بعد الزواج.

سأكون لك أمّا، وزوجة، وأختاً، وحبيبة وابنةً، والدّواء حين تمرض، والابتسامة حين تحزن، والوردة الّتي تسرّ ناظريك وأنفك برؤيتها، واستنشاق عبقها.

لقد حضر المساء، فجلست حول النّافورة، ثمّ جلس معي أبي وأخي وأمّي، قالت أمّي متحسّرة: آه لو كان عرسكِ في بغداد!

قلت: أرجوك يا أمّي لا تستدعي الحزن، بغداد أو دمشق أو أيّ مكان، المهم أن نكون مع من نحبّ.

قالت: ألم تخبريني ذات يوم أنّ في دمشق كلّ شيء جميل، لكنّك تريدين بغداد؟

قلت: بلى، أخبرتك بذلك، ثمّ غلبني الصمت لفترة، فقالت أمّي: ما بك؟

قلت: مازلت أريد بغداد يا أمّي، لكن أيضاً أريد محمد.

قال والدي: زينب، مازلتِ في منزلنا، إن كنتِ متردّدة في قرارك بإمكاننا أن نلغي كلّ شيء، وأنا يعزّ عليّ أن أزوّجك هنا يا ابنتي، لكن لا أريد أن أكون سبباً في حزنك.

قلت: لا يا أبي لست متردّدة، كما أنّ العودة إلى بغداد طيفٌ كاذبٌ، أذكر أنّك قلت لوالدتي _ حين خرجنا_ سنعود بعد أيّام قليلة، والآن قد أمضينا سنوات هنا، ولا نعلم متى سنعود.

قالت أمي: حصل ما حصل اخلدي إلى النوم، فغداً سيتمّ زفافك.

كان عمر ينظر لي ويبتسم، ولا أعلم ما السّبب، أيبتسم لأنّه يتذكر كيف ضربني بسبب محمد، أم يبتسم فرحاً من أجلي؟!

دخلت غرفتي واستلقيت على سريري أتخيل ما سيحصل يوم غد، فطُرق الباب، ودخل عمر ثمّ جلس على سريري، وقال: في الآونة الأخيرة عرفت ما معنى الأخت، ومقدار حنانها وعفوها، كنت أفرّغ لكِ أحزاني لتداويها لكنّك ستتزوّجين يازينب وسأبقى بمفردي هنا.

قلت: أنا سأتزوّج يوم غد، ولم أقل سأموت، أنت أخي وقرّة عيني، سأكون ملجأك ما حييت.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قال عمر: أتذكرين عندما كنّا صغاراً في بغداد؛ كانت لدينا قطّة هل تذكرتِها ؟

قلت: نعم، ما بها؟

قال: كانت تتشاجر مع أيّ قطّة تدخل إلى المنزل، أتعلمين لماذا ؟ إنّها لا تريد أن يقاسهما أحد ما نعطيها إيّاه من مشاعرَ وطعام الخ.....، والمرء مثلها، لا يريد أن يقاسمه أحد مشاعرَ كانت تأتيه لوحده .

أنا خائف من العودة إلى بغداد بدونك.

قلت: إنّ الأجساد تتفارق دائما، لكن الأرواح لا تتفارق يا أخي، حتّى وإن عدتم إلى بغداد ستعود روحي معكم، وسأذهب إليكم زيارات مهما كلّفني الأمر.

طبطب محمد على كتفي وخرج من الغرفة، فبدأت أفكّر بمشاعره، كلّ يوم اكتشف شيئاً، وأتعلّم درساً جديداً في هذه الحياة، واليوم اكتشفت أنّ الأشخاص العصبيين هم أكثر النّاس بحاجة إلى الحبّ والحنان، إنّهم بحاجة إلى أذرع تعانقهم ليُخرِجوا أحزانهم، من كان يصدق أنّ عمر يبكي؟ كنت لا أراه إلا شخصاً متكبّراً متعجرفاً، لكنه اليوم خائف من فراقي.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أخرجت الرسالة الّتي كتبتها إلى محمد، وتدربت على قراءتها مراراً كي ألقيها على مسامعه يوم غد، ولم أشأ أن أحدثه الآن، فأطفئت الهاتف وقرّرت ألّا أفتحه حتّى أصبح في منزلي المنتظر، وآمل ألا يحدث ما يعكر فرحتنا يوم غد.

****

أيقظتني أمّي في تمام السّاعة السّابعة صباحاً، فساعدتها ببعض حوائج المنزل، ثمّ استحممت، وبدأت أرتّب ملابسي الّتي اشتريتها بمهر الزّواج، وأضعها في الحقائب تمهيداً لنقلها إلى منزلي الجديد، كان أبي يبكي بجانب النافورة، وأمّي أيضاً، وعمر، فلم أستطع حبس دموعي.

إنّ البيوت المملوءة بالحبّ يعتبرون انتقال الفتاة إلى منزل زوجها خسارة لهم، عكس البيوت الأخرى الّتي تعتبر الفتاة حملاً ثقيلاً في المنزل، ويفرحون بخروجها منه لأنّهم يعتقدون أن همّ الفتيات لا ينتهي، ومنهم من يقول " هم البنات للممات" " ويعتبرون خروجها إلى بيت زوجها إعفاء لهم من حمل همّها.

بعد أن أصبحت السّاعة الثّانية عشر ذهبت مع والدتي وعمر إلى مزيّنة العرائس؛ فألبستني الفستان الأبيض، وزيّنت

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

شعري وجعلته على هيئة كعكة مدوّرة، ووضَعَت مساحيق التجميل على وجهي، وعطّرتني ثمّ قالت: تبدين فائقة الجمال، هنيئا لمن سيتزوّجك، إنّه سيملك القمر .

وبعد قليل أتى محمد بسيّارة مزيّنة بالورود والبالونات، ودخل إلى صالة تزيين العرائس مع أمّه، كان يرتدي بنطالاً أسوداً، ومعطفاً أسوداً وتحته قميص أبيض وربطة عنق حمراء، وحذاء أسود، كان شعره لامعاً، وعيناه كالشّمس السّاطعة، وشفتاه كحبّات الكرز، وأسنانه مصطفّة كاللّؤلؤ، وذقنه سوداء اللّون خفيفة الانتشار على وجهه، وقد رسمها على شكل زاوية، فتذكرت أنّي أخبرته بحبّي لتلك الرّسمة، فعاهدني أن يرسمها على وجهه ليلة زفافنا، وقد أوفى بوعده .

اقتربَ منّي، وأمسك فستاني الأبيض من الأسفل ورفعه قليلاً من جهة اليمين، وأمّي كانت تقف بجانبي وترفع فستاني كي لا يتسخ من جهة اليسار، وخالتي ميسون ترفعه من الخلف، وأنا أمشي كالملكة بينهم.

في صغري كنت أقول لأمي : لا أحب الفستان الأبيض، ولن أتزوج البتّة، كنت أظنّ أنّ الرّجل يعامل المرأة كما يعامل السّيد عبده، وكنت متخوّفة من فكرة مفارقة والديّ وأخي،

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

لكني بعد أن أحببت محمد أدركت أنّ الحبّ أسمى الأشياء وأجملها في هذه الحياة، وأنّ الفستان الأبيض مع من نحبّ بداية حياة جديدة.

عاد عمر إلى المنزل لأنّه من المكروه أن يرافق العروس أحد أفراد عائلتها باستثناء الأمّ، فهكذا جرت العادة هنا.

جلسنا في السيارة، كان عمّي مراد يجلس بجانب السّائق، وأنا ومحمد في منتصف الكرسيّ الخلفيّ ووالدتي بجانبي، وخالتي ميسون بجانب محمد، فقال عمّي مراد للسّائق : أشعل لنا الموسيقى الرومنسيّة.

قال السّائق: حسناً، " وأشعل أغنية(اسأل القلب) بصوت السّيدة آسيا الكندي" وعندما وصلنا إلى صالة العرس كانت مكتظة النّاس، فلمّا وضعت قدميّ فيها اشتعلت الأضواء الملوّنة، وارتفع صوت الزغاريد، واشتعلت الموسيقى.

جلسنا أنا ومحمد بجانب بعضنا في صدر الصّالة، والنّاس حول الطّاولات، وأصدقاء محمد يدبكون.

وقفنا أنا ومحمد بعد أن أتت خالتي ميسون وبيدها صندوق خشبيّ، ففتح محمد الصّندوق، وأخرج الخاتم وألبسني إيّاه، ثمّ لفّ الطّوق حول عنقي، وألبسني الحلق والأساور، فبدأ

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

عمّي مراد بتصويرنا، والنّاس تصفّق وتصفر، وبعد مرور عدّة ساعات من الاحتفال طلبوا منّا أن نرقص.

همس محمد في أذني: هل تجيدين الرّقص.

أجبت: نعم، وبجدارة، ماذا عنك أنت؟

قال: وأنا أيضاً، ثمّ أمسك بيدي ووقفنا في منتصف الصّالة.

قال محمد: أشعلوا لنا الموسيقى الرّاقصة.

ولما أُشعلت أمسك كفّي اليُمنى بكفّه اليسرى، ووضع يده الثّانية خلف ظهري وشدّني نحوه حتّى التصقنا ببعضنا، ثمّ حلّق بي إلى السّماء.

بدأت أرقص مع محمد وأتمايل عليه، والنّاس تنظر إلينا بدهشة، وتصفّق لنا، كنّا كالفراشات نحلّق عالياً دون حواجز.

وبعد أن انتهت الأغنية عدنا وجلسنا في مكاننا.

كان أحمد وعمّي مراد، وبعض أصدقاء محمد يوزّعون الحلوى على النّاي، وأمّي تجلس على قرب منّي ودمعاتها تقف على أهدابها ؛ لا تغيض ولا تفيض، اقتربت منها وقبلت جبينها وقلت: أرجوكِ يا أمّي افرحي، هذا زفاف ابنتك الوحيدة، امسحي دموعك من أجلي، وعدت وجلست بجانب محمد.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

وبعد أن انتهى العرس صعدنا أنا ومحمد بسيّارة العريسين، والنّاس وراءنا بالسيّارات الأخرى، وأصوات زمامير السيّارات يدوي في دمشق.

وصلنا إلى الطّابق الّذي توجد فيه الشّقة الّتي استأجرها محمد، فنزلنا من السيّارة وصعدنا إلى الشّقة؛ كانت في الطّابق الثّاني، ولمّا فتح محمد الباب دخل أهله وأمّي وأصدقاؤه، فأدخلتني أمّي وخالتي ميسون وبعض النساء إلى غرفة النوم، وبدأوا يحدثوني عما يخص هذه اللّيلة، أمّا محمد فبقي في الخارج مع والده وأصدقائه.

وبعد قليل أدخلوا محمد على الغرفة وذهبوا كلهم.

بقينا أنا ومحمد كالعصافير نغرد داخله، فأحكم محمد إغلاق الباب، ثمّ دخل ورفع الغطاء عن وجهي، وقال: هل أنا في حقيقة أم خيال؟!

شعرت بالخجل الشديد فنظرت إلى الأسفل وابتسمت.

قال محمد: لا تخجلي، اليوم هو يوم سعادتنا، ووضع كفيه على كتفي، وقرّب رأسه نحو رأسي.

قلت له: توقف قليلاً، لديّ ما أقوله لك.

قال: بسرعة.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

أخرجت الورقة (الرسالة التي كتبتها له) ، وفتحتها، ثمّ قلت لقد كتبتها يوم أن عانقتني في منزلكم، واحتفظت بها لألقيها على مسامعك في هذه اللّيلة، وسأنفذ وعدي.

وقفت أمامه أقرأ كلماتي، وبعد أن اجتزت قراءة ثلثي الرسالة أصبح محمد يلتقط أنفاسه بسرعة، فأمسك الورقة وأطال النّظر في وجهي ثمّ دفعني على السرير، وقال: سأشعل الأرض حبّاً.

محمد

دمشق

٢٠٠٨/٨/١٢م.

إنّها السّاعة التّاسعة صباحاً من اليوم الأول بعد زفافنا، كان كلّ شيء يعبر عن فرحه لنا بطريقته، خيوط الشّمس، وصوت فيروز المنبعث من شقّة جارنا، وحمامات دمشق وعصافيرها؛ كأنّ الأرض كلّها تفرح إن تزوّج عاشقان.

نهضت من فراشي ثمٍ بدأت أهيئ الفطور، وبعد أن انتهيت جلست بجانب رأس زينب، كانت نائمة على جنبها الأيمن، رفعت خصال شعرها المتدليّة على عيونها ثمّ طبعت قبلتي على وجنتها وقلت: زينب حبيبتي لقد حلّ الصّباح انهضي فالفطور جاهز.

كان نومها ثقيلاً بعض الشيء فاستدارت على الجهة الأخرى وأكملت نومها، فقلت لها: لقد قبلتك على وجنتك اليمنى فشعرت اليسرى بالغيرة لذلك طلبتْ منك أن تستديري، وأنا لن أخجلها، فطبعت قبلتي على وجنتها اليسرى أيضا.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

فتحَتْ عينيها، يا إلهي ما هذا الملاك الّذي رقد معي في الفراش، ربّما أحتاج أوراق الأرض كلّها لأصف تلك اللّحظة الّتي فتحت فيها عينيها.

قلت: ما أجملك، ولو وضعوا النّساء كلّها في كفّة وأنتِ في كفّة أخرى لرجحت كفتكِ. وكسرت من شدّة أنوثتكِ، إنّكِ كالحبقة ما إن تُلمسي يفوح عبقكِ، ويطيب المقام معكِ، وتشتعل أضواء القلب معلنة احتفالها بقربكِ.

ابتسمت وقالت: صباح الخير.

قلت: الآن صار صباح خير، هيا انهضي، هيّأت لك الفطور.

تعجبت وقالت: أصحيح، محظوظة أنا بكِ! لكن لن أذهب احملني أنت.

ابتسمتُ ووضعتُ يدي اليمنى وراء ظهرها، واليسرى عند انثناء مفصلي ركبتيها، وأخذتها للمغسلة، وغسلت لها وجهها ثمّ عدت وحملتها ثانية ووضعتها على الكرسيّ حول مائدة الطّعام.

قالت: ظننت أنّه من المعيب أن يُحضّر الزوج الفطور لزوجته، فهذا العمل يترتّب على عاتق الزّوجة.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قلت: إنّي لا أؤمن بتلك المصطلحات أبداً، كلّ شيء سيكون متقاسماً بيننا (الحبّ _ أعمال المنزل _ كي الثّياب، كلّ شيء) وأضيف إلى ذلك مهمّتين لي لا علاقة لكِ بهما.

سألتني: وماهما؟

أجبتها: الأولى، مسؤوليّة العمل خارج المنزل، والثّانية تجديل شعرك، فلا أسمح لك أن تتدخلي بهما.

أمسكتُ اللّقمة الأولى ووضعتُها في فمها وقلت:

زينب دعك من بغداد ومعالمها، وانسي دمشق وجمالها، وعيشي في قلبي بسلام وأمان ، فقد بنيت لكِ موطناً فيه؛ لا يخونك حتى في الخصام.

وبعد أن انتهينا من الفطور، حملناه وذهبنا إلى المطبخ، كانت زينب تجلي الصحون، وأنا أغسلها بالماء وراءها.

قالت زينب: هل الماء ساخن حتّى نستحمّ؟

قلت: نعم هيّا بنا قبل أن يتوافد علينا من يريد أن يبارك لنا.

وبعد أن انتهينا من الاستحمام جلست زينب على الكرسيّ أمام المرآة الكبيرة فأمسكتُ" الإستشوار" وبدأتُ أجفّف لها شعرها وأسرّحه، ثمّ أجلستها على السّرير وجلست وراءها لأجدّله .

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

قالت ضاحكة: أعدتني إلى طفولتي يامحمد.

قلت: وستبقين طفلة مادام النّفس يدخل رئتيّ بسلام.

لو يدرك العاشقون بالفرح الّذي ينتظرهم حين يتزوّجون لأقاموا الحروب من أجل أن تكون عشيقاتهم لهم، تخيّل أن تمشي في صحراء، وتتيه فيها، ويكاد الظّمأ أن يقتلك، ثمّ تجد نهراً مياهه صافية وعذبة، ستكون أسعد النّاس حينها، وهكذا هي فرحة الزّواج من المحبوبة، فيجب على الإنسان أن يقاتل من أجل من يحب، إمّا أن يموت، أو ينتصر، فكلّ المرضى الّذين يتعالجون في المشافي النفسيّة كانوا عشّاقا ولم يتزوجوا ممّن يحبون.

قلت لزينب: أنتِ أعظم انتصاراتي، وبدأتُ أداعبها تارة وأقبلها تارة، وحين انتهيت جلسَتْ أمام المرآة، وبدأَتْ تضع مساحيق التّجميل على وجهها، ثمّ التفتت نحوي وسألتني، ما رأيك؟

أجبت :

يسعدني أنّ الشّمس الّتي تُشرق على وجهك تشرق على وجهي أيضاً، وأنّ الهواء الّذي أتنفّسه يمرّ برئتيكِ من قبل .

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

لم أعد بحاجة إلى شروق الشّمس حتّى يبدأ صباحي، سيبدأ _ من اليوم وصاعداً _ حين تستيقظين.

ماذا سأقول أمام كوكبك المليء بالعظمة والجمال!

سأكون الهواء الّذي يداعب خصال شعرك، و الكحل الّذي يختبئ في عينيك، والكرز المحمرّ على شفتيكِ.

سأقَبّلُ، وأحضنُ، وأكتبُ، وأداعبُ كلّ ما يستدعي جنوني فيكِ، وكلّكِ تستدعين جنوني، فليتني أستطيع التهامك دفعة واحدة.

قالت زينب: أنت تبالغ، لا أبدو جميلة إلى هذا الحد الّذي أثار جنونك.

قلت: لا لست مبالغاً، فليس هناك شيء في الأرض أجمل منكِ، وأرفت: قفي أمام المرأة.

قالت: لماذا؟

قلت: قفي وسأخبرك.

وقفت زينب أمام المرأة وقالت ماذا أفعل؟

قلت: هل ترين الحفرة في أسفل عنقكِ؟

قالت: نعم، ما بها؟

قلت: فلتدفنيني هناك .

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

تبادلنا الأحاديث والغزل حتّى أتى والديّ وأخي، كانوا يحملون باقات الورد، ورسائل التهنئة، وبعد أن جلسوا قليلاً أخرجت أمي إسوارة ذهب (مبرومة) من حقيبتها، ووضعتها في يد زينب وقالت: تقبّلوها منا.

وبعد انصرافهم أتى عمّي رعد وعائلته، كان يحمل صندوقاً خشبياً متوسّط الحجم، فلمّا دخل وضعه عند عتبة الغرفة، أمّا عمر وخالتي نبيلة قالا: ستكون تهنئتنا لكما بالمال.

قال عمّي رعد: أنا متأكّد أنّ الفضول انتابكم لتعرفوا ما بداخل الصّندوق، أصحيح؟

قلنا أنا وزينب: بالطبع.

قال: هذه عشرة كتب، ستفيدكما أنتما الإثنين في حياتكما الزوجيّة، صحيح يامحمد أنّك تستطيع أن تذهب إلى المكتبة وتأخذ الكتاب الّذي تريد، لكنّك لن تجد مثل هذه الكتب، فقد جلبها لي صديقي من روسيا بعد أن ترجمها إلى العربيّة.

احتفظت بها في بغداد زمناً طويلاً، وحين أتيت إلى دمشق كانت أوّل الأشياء الّتي جلبتها معي، فآمل أن تكون تهنئتي لائقة بكما.

ـ مصطفى محمد الشومان ـــــــ بغداديّةٌ في دمشق ـــــــ

ضحكت نبيلة وقالت: أخبرته مراراً أنّ الكتاب لا يصلح أن يكون هديّة لمناسبة كهذه.

قلت: لا يا خالتي، الكتاب أثمن هديّة بالنّسبة لي.

قال عمّي رعد مبتسماً: أرجو أن تعيد النّظر في نفسك إن كان قولك مجاملة، وإن كان غير ذلك فنعم الرجل أنت.

وأردف قائلاً لي ولزينب: كانوا يطلبون منّي أن أهنّئكما بالنّقود ، لكنّي لم أقبل، فلو كنّا نتعامل بالعقل بدلاً من المال، لاشترينا المال بأبخس الأثمان.

النّهاية